الجزء الأول

حماية القدرة الفكرية عند الفتيان

الفصل الأول

الأزمة الحالية

يميل الفتيان فطرياً نحو المجازفة. لذا، فإنّ الأم تواجه الكثير من الأزمات الصغيرة يومياً. إلاّ أنّ الأزمة التعليمية التي واجهها ابني فاجأتني إلى أبعد الحدود.

كاثي ستيفينز

ترحّب اليافطة في المدرسة التمهيدية بجميع الطلاّب. يصل الابن البالغ من العمر الثلاث سنوات مع والديه اللذين اختارا هذه المدرسة من بين جميع المدارس التمهيدية في المنطقة. يخفق قلباهما بقوّة، إذ إنّه اليوم المدرسي الأول لابنهما. ينزلان من السيارة ويُخرجان ابنهما من كرسي السيارة ويرافقانه إلى الباب الأمامي للمدرسة.

تتجه شابة نحوهم وترحب بطالبها الجديد وبأهله. يرتعش الفتى بعد إدراكه بأنّ والديه سيتركانه هنا. يعانقهما ويبكي لبعض الوقت، ثمّ يذهب مع معلّمته، وهي شابة ودودة تمسك يده وتعرّفه إلى الأولاد الآخرين. يلتفت الفتى نحو والديه ويلوّح بيده. يردّ الوالدان بالمثل ويغادران المكان بهدوء.

لا يفهم هذا الفتى آمال والديه وأحلامهما. لا يعلم كم يرغب والداه بأن تنوّره هذه المدرسة وغيرها من المدارس التي قد يلتحق بها ابنهما. لا يدري كم يرغبان بأن تغذي هذه المؤسسات التعليمية قدرته الفكرية، خصوصاً وأنّهما مؤمنان بوجود طاقمٍ تعليمي مؤهل تمّ تدريبه على تعليم الفتيان. لدى مغادرتهما للمدرسة، يبدأ الوالدان بالتفكير بمدى نموّ ابنهما الفكري في المدرسة، وبالعلامات الجيدة التي سيحصل عليها. يفكران بالمدرّسين وبالمعرفة التي سيكتسبها منهم، إضافةً إلى حبّ الحياة وإلى الحكمة التي سيتوصل إليها بعد

اثنتي عشرة سنة وأكثر من التجربة المدرسية. لقد أدخلا ابنهما إلى مدرسة تعتمد على نظامٍ تعليمي قد أثبت فاعليته عبر التاريخ.

وقد يكون بالفاعلية نفسها في حياة ابنهما.

إلاّ أنّ هناك إمكانية لفشل هذا النظام في تعليم ابنهما. قد تكون هذه بدايةً لأزمة تربوية في عائلته. ولن تكون هذه العائلة الوحيدة التي تواجه هذه الأزمة.

هل هناك أزمة بالفعل؟

يتمّ استخدام كلمة «أزمة» بشكل واسع هذه الأيام، لذا يجب معاملتها بحذر. في الواقع، لقد حاولت وكاثي استعمال هذه الكلمة، لكننا نفكر دوماً بأنّ هناك الكثير من الفتيان الذين لا يواجهون أيّة مشكلة، لذا هل نستطيع تسمية الوضع الحالي أزمة؟ كنّا نعلم بأنّ عائلتي غوريان وستيفينز قد عانتا من مشكلتيهما وتغلّبتا عليهما، ولكنّنا تساءلنا إن كانت الأزمة منتشرة في وطننا وحول العالم. عدنا بالذاكرة إلى الوقت الذي سئل فيه طاقم مركز غوريان، وغيرهم من المختصين، عن تعليقهم وتحليلهم لما جرى ولأسبابه. أدركنا عندها أنّ كلمة «أزمة» قادرةٌ على أن تولّد خوفاً حيال حياة الأطفال، وهو شعورٌ قد يؤذي المدارس والعائلات وقد ينشر شعوراً باليأس، ممّا يعيق التغييرات اللازمة والحلول الضرورية.

إلاّ أنّنا استخدمنا هذه الكلمة بالرغم من كلّ ذلك. نأسف لاعترافنا بوجود أزمة خطيرة. نأمل أن نقنعكم في هذا الفصل باستخدام الكلمة، ليس كتحذير فحسب بل كدافعٍ لاتخاذ إجراءاتٍ ضرورية. سنعرض عليكم بعض ما يقوله الأهالي والمعلمون عن الوضع الذي يواجهه الفتيان في مدارسهم.

لوري هوف، هي أمٌّ لثلاثة أولاد في نينا، ويسكونسين. كتبت لنا لوري رسالةً فيها أن ابنها الذي يبلغ الثالثة عشرة من عمره يذهب إلى مدرسة تكميلية لا تحترم قدرات الفتيان الفكرية وحاجاتهم التعلّمية. تعتبر لوري أنّ الواجبات

المنزلية وتكوين اليوم المدرسي، إضافةً إلى القوانين السلوكية، تعمل معاً في نظامٍ تعليمي يحارب الفتيان.

أمّا نيتي كروسكان، وهي باحثة من ماريون، كينتاكي، فقد أطلعتنا على عملها القائم على تقييم التأخر في النمو وتطويره. من خلال أبحاثها، لاحظت نيتي أنّ معظم الأطفال الذين يعانون من هذا التأخر هم من الذكور.

في رسالةٍ لها، عبّرت ليندا ساليفان، وهي أمٌّ لولدين في فيرجينيا، عن تفاجئها من عدد الفتيان الذين يتمّ تشخيصهم باضطرابات سلوكية مثل عدم القدرة على التركيز وبمطلق الصعوبات التعلّمية. في منطقتها مدرسة يأخذ ثمانيةٌ من طلاب الصف الثالث، الذي يبلغ عددهم العشرين، جرعات من الريتالين.

الواقع المرير:

إنّ هؤلاء الأهل والباحثين خائفون، ولهم الحق بالشعور بذلك الخوف. إنّ الإحصائيات في مجتمعاتهم مثيرة للقلق، ويمكنكم الاطلاع عليها في «هل كنت تعلم؟».

لا تنحصر المشكلات التي يواجهها الفتيان في المدارس بمجموعةٍ عرقيةٍ معينة أو بطبقةٍ اجتماعيةٍ دون غيرها. قد يكون من المغري القول إنّ الذكور الأثرياء ذوي البشرة البيضاء لا يعانون من أيّة مشكلة، إلاّ أنّ ذلك غير صحيح. لقد طُلب مؤخراً من مركز غوريان أن تساعد مدرسة ثانوية خاصة يتألف جسمها الطلابي من غالبيةٍ من الفتيان الأثرياء ذوي البشرة البيضاء. إنّ خمسين بالمئة من طلاب هذه المدرسة، وفي مختلف المراحل، قد رسبوا في مادة واحدة على الأقل. لذا، فالمشكلة تمتد إلى هذه الطبقة وهذا العرق.

تظهر الأزمة بشكل واسع عند الذكور الأميركيين من أصل إفريقي، إذ إنّهم معرضون أكثر من غيرهم إلى: (1) الصعوبات التعلّمية والالتحاق بصفوف لذوي

الاحتياجات الخاصة، (2) عدم المشاركة في الصفوف المتقدمة، (3) الأداء بشكل أسوأ من زملائهم في مادتي الرياضيات والعلوم، (4) الحصول على علامات أقل من زملائهم في الامتحانات الرسمية.

يحاضر بيدرو نوغييرا في كلية التربية في جامعة هارفرد، وتحديداً في قسم الماجيستير. قام نوغييرا بدراسة الأداء الأكاديمي للذكور الأميركيين من أصل إفريقي، وتوصل إلى أنّ 90 بالمئة منهم يرغبون بشدّة بالنجاح في المدرسة، إلاّ أن 22 بالمئة فقط عبّروا عن أنّهم يبذلون مجهوداً للحصول على علامات جيدة. كما وجد نوغييرا أنّ 42 بالمئة من هؤلاء الذكور لم يوافقوا على أنّ مدرّسيهم يدعمونهم أو يهتمون بنجاحهم في المدرسة.

هل كنت تعلم؟

- يشكّل الفتيان أغلبية الراسبين في معظم المدارس، وتصل نسبتهم في بعضها إلى 70 بالمئة.
- يتسبّب الفتيان بحوالي 80 بالمئة من المشكلات السلوكية.
- يشكّل الفتيان 80 بالمئة من الأطفال المصابين باضطرابات سلوكية.
- يشكّل الفتيان 80 بالمئة من الطلاب الذين يأخذون جرعات من الريتالين أو من الأدوية المشابهة. في العام 2004، وصل عدد الفتيان الذين يأخذون جرعات الريتالين إلى حوالى خمسة ملايين. (تستهلك الولايات المتحدة 80 بالمئة من المخزون العالمي للريتالين).
- وفقاً لوزارة التربية والتعليم الأميركية، إنّ التباين بين الفتيان والفتيات يتراوح بين السنة والسنة والنصف، حيث يتخلّف الذكور عن الإناث في القراءة والكتابة. (لا يصل تخلّف الفتيات عن الفتيان في الرياضيات والعلوم إلى هذا الحدّ).
- يشكّل الفتيان 80 بالمئة من الطلاّب الذين يتركون المدرسة في المرحلة الثانوية.
- يشكّل الفتيان 44 بالمئة من الطلاب الجامعيين.

لا تنحصر أزمة الذكور التعليمية بالولايات المتحدة. قامت الجمعية الاقتصادية للتعاون والتنمية بدراسة دامت ثلاث سنوات وتمحورت حول المعرفة والمهارات لدى المراهقين في عمر الخامسة عشرة. اعتمدت هذه الدراسة على امتحان سمّي بالبرنامج الدولي لتقويم الطلاب. وارتكز الامتحان على القراءة والرياضيات والعلوم. تفوقت الفتيات على الفتيان بشكل عام في 35 بلداً منها الولايات المتحدة وانكلترا وكندا ووأستراليا وألمانيا وفرنسا واليابان. كان أكبر تباين بين الجنسين في القراءة والكتابة.

في كندا، بدأ تطبيق نظام مؤشرات الأداء الأكاديمي في العام 1993، وكان محور هذا الامتحان تقويم الجدارة في الرياضيات والقراءة والكتابة والعلوم. في دورة العام 2002، كان هناك تباين بين الفتيات والفتيان في الكتابة، وتشابهت النتائج الخاصة بهذا الامتحان وبالنظام الدولي، إذ إنّ الفتيات تفوّقن على الفتيان في جميع المراحل.

تمّ نشر تقرير في أوستراليا في العام 2002 وكان عنوانه «اتخاذ الخطوات الصحيحة مع الفتيان». كان الموضوع الرئيس لهذا التقرير تعليم الفتيان في أوستراليا، وكان نتيجة مجهود واسع على نطاق البلد بأكمله. أشرف على التقرير مجلس النواب الأسترالي، وكان الهدف منه تحديد العوامل المؤدية إلى تدنّي مستوى الأداء الأكاديمي للفتيان الأوستراليين. كانت هناك جلسات عديدة في مختلف أرجاء أوستراليا، وقدّم أكثر من مئتي شاهد نتائج أبحاثهم أو معلومات يحملونها، ممّا أدّى إلى التوصل إلى سلسلة استنتاجات ونصائح. كانت النتيجة العامة لهذا التقرير أنّ النظام التعليمي الأوسترالي لم يأخذ بعين الاعتبار حاجات الفتيان الاجتماعية والتربوية.

كما وقامت إنكلترا بدراساتها الخاصة التي أظهرت أنّ الفتيات تتفوّقن على الفتيان في معظم المواد وفي معظم الأعمار. كان هذا التباين واضحاً لدى جميع

الأقليات العرقية، واعتبر الباحثون أن المشكلة لا تنبع من الفتيان بل من المدارس. من المثير للاهتمام أنّ الولايات المتحدة لم تنشر النتائج نفسها التي توصل إليها الباحثون إليها في كندا وأوستراليا وإنكلترا.

بوسع أبنائنا التعلم في أيّة بيئة، فهم موهوبون وهم الرابحون في مباريات التهجئة والجدل. كما وأنّهم ينتهون من مطالعة كتاب هاري بوتر بأكمله في غضون أسبوع. إلاّ أنّ معظم الأطفال الذين يرسبون في المدرسة وفي جميع مراحلها هم من الفتيان. هناك الكثير من الطلاب الذين يعانون من ضعف أكاديمي أو حتى من الرسوب، ممّا يضطر أهاليهم إلى طلب المساعدة الإضافية. إلاّ أنّ الأمر الأهم في هذه المسألة هو أنّ معظم هؤلاء هم من الفتيان.

إنّ معدّل نتائج الامتحانات في الولايات أو في البلاد ككلّ يتدنّى بسبب علامات الفتيان. إنّ أكثر من يعاني من النظام التعليمي هو الجنس الذكوري. إضافةً إلى ذلك، يشعر المدرّسون بالعجز في تعاملهم مع الأبناء.

النتائج التي توصّل إليها الخبراء:

لستُ وكاثي الوحيدَيْن اللذين يشعران بالانزعاج تجاه أزمة تعليم الفتيان. دان كيندلون هو باحث من جامعة هارفرد ومايكل تومسون هو عالم نفسٍ متخصص بالمرحلة التمهيدية. قام كيندلون وتومسون بتأليف كتاب خاص بالتعليم الإعدادي، وفيه أنّ الفتى يمضي أكثر من ألف ساعةٍ سنوياً في المدرسة من دخوله صف الحضانة وحتى الصف السادس. يضيف هذان الباحثان أنّ الفتى يعاني في هذه المرحلة الإعدادية ليصل إلى ما هو متوقعٌ منه على صعيدي النمو والأداء الأكاديمي. يختلف الفتيان في ما بينهم في تلك المسألة، وتتخلف بعض الإناث عن الذكور. إلاّ أنّ النتائج العامة تشير إلى أنّ الفتيات تتفوقن على الفتيان على صعيد النمو الفكري في المرحلة المدرسية المبكرة.

ألّف عالم النفس في جامعة هارفرد، ويليام بولاك، كتاباً تحت عنوان «الفتيان الحقيقيون»، وفيه دراسةٌ لثقة الفتيان بقدرتهم التعلّمية في المرحلتين التكميلية والثانوية. أظهرت هذه الدراسة أنّ هذه الثقة أقل عند الفتيان مقارنةً بالفتيات، وأنّ الذكور معرّضون أكثر من الإناث، إلى مواجهة مشكلات سلوكية أو إلى الطرد من المدرسة أو حتى تركها.

قامت كريستينا هوف سامكرز بالدراسة الأوسع من نوعها ونشرت نتائجها في كتابها «الحرب ضد الفتيان». توصّلت سامرز إلى أنّ الفتيات، في نظامنا التعليمي الحالي، يرغبن بالتعلّم أكثر من الفتيان. كما وأنّ 31 بالمئة من الفتيان يشعرون بأنّ المدرّسين لا يهتمون بحاجاتهم، مقارنةً بـ 10 بالمئة من الفتيات.

أشارت سامرز أيضاً إلى دراسات قامت بها وزارة التربية الأميركية في الصفين الثامن والثاني عشر. في ما يتعلّق بالتطوّر المهني، كان لدى الفتيات في الصفين توقعاتٌ مهنية أكبر من توقعات الفتيان. شعر عدد أكبر من الفتيات أنهنّ سيتخرجن من المدرسة والجامعة، كما توقعن حصولهن على شهادات الماجيستير أو التحاقهن ببرامج التدريب المهني.

قامت دايان رافيتش، وهي باحثة حكومية، بتلخيص الوضع في نظامنا التعليمي، قائلةً إن ما يتّضح في جميع المراحل المدرسية، وما يراه الطلاّب والباحثون من الجنسين، هو أنّ المدارس تساند الفتيات.

أبحاث مركز غوريان:

تؤيد أبحاث مركز غوريان النتائج التي توصّل إليها هؤلاء الباحثون. بعد عشرين سنة من الدراسات ومن ابتكار الأنظمة الجديدة في جميع الولايات، وفي كندا وأوستراليا، توصلنا إلى الأمر التالي: إن كان أداء الفتى الأكاديمي جيداً أم

متدنياً، فإنّه معرّضٌ لأن يتم تعليمه وإرشاده في نظام قد يعتبره متخلّفاً عن غيره. كما ومن نتائجنا أنّ هذا النظام قد يكون غير قادر على تصحيح هذا الخلل عند الفتى أو في النظام نفسه.

تؤدي هذه الصعوبة التي يواجهها الفتيان إلى مشكلةٍ ستؤثر على حضارتنا بشكلٍ سلبي في العقود القادمة، إن لم نحاول إيجاد حلٍّ لها في القريب العاجل. سيستمر الأهالي باصطحاب أبنائهم إلى الحضانة في اليوم المدرسي الأول لهم، إلاّ أنّهم سيواجهون هذه الأزمة التربوية مع ابنٍ واحدٍ على الأقل.

أطلعتنا تيري كالبيبير، وهي أمٌّ من أريزونا على أنّ ابنها وثلاثة من أصدقائه بدؤوا بالتغيّب عن المدرسة منذ وصولهم إلى المرحلة التكميلية. عبّرت لنا تيري عن إحباطها من جرّاء هذه المسألة التي حاولت ما بوسعها لحلّها ولكن دون جدوى.

أمّا إيسايا أولسون، فهو أبٌ من ديترويت، وقد لاحظ مشكلةً ظاهرةً في مدرستهم لدى الفتيان المتحدّرين من أصلٍ إفريقي. لا يشعر هؤلاء الطلاّب بالانتماء إلى مجتمعهم، وليست المسألة متعلّقةً بالعرق فحسب بل بأمور أخرى. بات عدد الذكور منهم الذين يتركون المدرسة ضعف عدد الإناث؛ لذا فإنّ لجنس الطلاّب تأثيراً واضحاً على هذه الظاهرة.

ترايس طالبٌ في الصف التاسع في أوريغون، وقد عبّر لمستشارة المدرسة عن شعوره بأنّه تلميذٌ فاشل. شدّد ترايس على أنّ الجميع يدركون ذلك، بما في ذلك أهله ومدرّسوه، إلاّ أنه ما باليد حيلة.

من المؤكد أن هؤلاء الأشخاص يواجهون أزمةً تتمثّل بعدم ثقتهم بالنظام

التعليمي. إنّ هذه الرسائل التي ذكرناها أمثلةٌ عن الآلاف التي تصل إلينا وإلى باحثين آخرين باستمرار.

الفتيان في حياتكم:

لن تتأثروا بالإحصائيات وبالتجارب الخاصة وبالأزمة نفسها إن لم يكن في محيطكم مَنْ يعاني مِن فتيانٍ ومدارس وعائلات. ما هو الوضع في مدارسكم ومنازلكم ومجتمعاتكم؟

أسئلة موجهة للأهالي:

- هل تعرفون فتياناً أذكياء ولكنّ أداءهم المدرسي سيئ؟
- هل تعرفون فتياناً ينجحون في إنجاز المهمات في بيوتهم وفي أماكن أخرى، ولكن يفتقدون إلى الحافز للتعلّم في صفوفهم؟
- هل تعرفون فتياناً يحصلون على علاماتٍ متدنية ويتخلّفون عن زملائهم ولا يريدون أو لا يستطيعون إنجاز الفروض المطلوبة منهم؟
- هل هناك أبناءٌ يجيدون إحدى المواد، كالرياضيات مثلاً، ولكن يتخلفون عن زملائهم في مواد أخرى كالقراءة؟
- في مدارس أبنائكم، كم يبلغ عدد الطلاّب الذين يأخذون جرعات من الريتالين أو الآديرال؟ هل تمّ فحص هؤلاء الطلاّب علمياً لمعرفة إن كانوا يعانون من اضطرابات سلوكية كعدم القدرة على التركيز أو كالحركة المفرطة؟ أم هل إعطاؤهم الأدوية هذه مجرّد حلٍّ سهل لمشكلة يعاني منها الفتيان في المدرسة بشكل عام؟

ـ هل تعرفون فتياناً وعائلاتٍ تزداد مشكلاتهم المدرسية سنةً بعد سنة؟

ـ هل تعرفون مراهقين لا يتلقّون التدريب الكافي الذي يحضرهم للحصول على وظائف أو للنموّ والتقدّم في حياةٍ سعيدة وسليمة؟

أسئلة موجّهة للمدرّسين أو للمختصّين بالمسائل التربوية:

ـ في صفوفكم، هل عدد الفتيان ذوي الأداء المتدني المستوى أكثر من عدد الفتيات؟

ـ هل يحصل الفتيان في مدرستكم على نتائج سيئة في القراءة والكتابة واللغات؟

ـ هل يتمّ اللجوء إلى الأدوية دون أن يكون الفتيان بحاجة إليها؟

ـ هل امتنع الفتيان في صفوفكم عن التعلّم؟ وهل بدؤوا بافتعال المشكلات أكثر ممّا يلزم؟

ـ هل لاحظتم عدد الفتيان الأذكياء الذين يقررون عدم الالتحاق بالجامعات؟

في نظامنا التعليمي الكثير من الإيجابيات، إلاّ أنّ في كلّ صفّ تقريباً طالباً يفتعل المشكلات ويعاني من أزمة تعليمية تماماً كمايكل غوريان وكارل مايكل. يتعارك هؤلاء الطلاب مع زملائهم ومع الراشدين. عندما يقررون ترك المدرسة، يؤثرون على غيرهم ممّا يؤدي إلى عدد أكبر من الطلاب الذين لا يتخرجون من المدارس والجامعات. عندما يرسب هؤلاء، يتوقفون عن استغلال قدراتهم الفكرية ويفقدون أيّ اهتمام بالمدرسة أو بالمجتمع ككل. يتحوّل الغضب الذي يشعر به بعض هؤلاء الطلاب في المدرسة إلى عنفٍ متمثلٍ باستخدامهم للأسلحة أو بضرب زملائهم. كثيراً ما يتخلّف هؤلاء عن رفاقهم في الصف، ويقرر معظمهم ترك المدرسة. يتمّ وضع بعضهم في صفوف للاحتياجات الخاصة أو يتمّ

تشخيصهم بصعوبة تعلّمية ما، وقد يصف لهم المتخصصون أدويةً معينة لحلّ هذه المشكلات. يواجه العديد منهم الفشل في الحياة، ويغدون رجالاً وفتياناً بعيدين كل البعد عن الصورة التي أردناها لأبنائنا.

شباننا والجامعة:

للمرة الأولى عبر التاريخ، يمثل الذكور أقل من 44 بالمئة من الطلاب في عديد من جامعات الولايات المتحدة. لطالما كان عدد الإناث أقل لقرونٍ عدة، إلاّ أنّ الوضع قد انعكس. منذ منتصف التسعينيات، بدأ عدد الشبان، الملتحقين بالجامعة والمتخرجين منها، ينخفض إلى حدّ عدم التساوي بين الجنسين في هذه المؤسسات التعليمية. لما شكّل هذا الأمر مشكلةً إن لم تكن التجربة الجامعية قيّمة، إلاّ أنّ دراسةً جديدة قد أثبتت أنّ معظمنا يشدّد على الشهادة الجامعية كأساس للنجاح في الحياة. كما وأظهرت هذه الدراسة أنّ عدداً كبيراً من الذكور لا يشعرون بالانتماء إلى الجامعة.

في بوسطن، قام مركز الدراسات المختصة بسوق العمل في جامعة نورث إيستيرن بدراسةٍ عرضت تأثير حرم الشبّان من النجاح الدراسي. اعتبرت الدراسة أنّ استمرار ما يجري في عالمنا التربوي سيؤدي إلى انخفاض متزايد لعدد الذكور المتخرجين من المدرسة والملتحقين بالجامعة، وحدّدت النسبة التي سيصل إليها عدد الشبان في الجامعات إلى ثلاثين بالمئة.

هل من متطلبات النجاح في الحياة الالتحاق بالجامعة؟ لا ينطبق ذلك على جميع الحالات. لم يتخرّج بيل غايتس من الجامعة، ومن المعروف أنّه والدٌ صالح ورجل أعمال ناجح ومواطنٌ يخدم بلده بفعالية. إنّ الالتفات إلى مشكلة الذكور الجامعية لا يعني الانتقاص من قدر الفرد ومن سماته الحسنة، ولا يسعى إلى انتقاد نجاح النساء في التحاق عدد أكبر منهن بالجامعات واستقلاليتهن المادية

هل كنت تعلم؟

وفقاً لدراسة قام بها المركز الخاص بالأبحاث العمّالية، فإنّ الشبان، وبالرغم من وصول نسبتهم في الجامعات إلى 44 بالمئة، سوف:

- يزدادون في عالم البطالة.
- يجمعون مبالغ مالية أقل قيمةً ممّا يجمعه زملاؤهم.
- يدفعون مبالغ أقل من الضرائب للضمان الاجتماعي وللحكومة، الأمر الذي يتسبّب به المستوى التعليمي المنخفض.
- يعتمدون على المساعدات الاجتماعية (كالإعاشات والمستوصفات) أكثر من الذكور الذين حصلوا على شهادات أعلى مستوى.
- يشكّلون أغلبية آباء الأطفال غير الشرعيين.
- لن يحققوا أهدافهم الشخصية والاجتماعية الخاصة بالنجاح في هذه الحياة التنافسية.

عن الرجال. إلاَّ أنّ الغاية من ذلك هو التأكيد على أنّ الشهادة الجامعية أفضل مؤشر لنجاح الفرد على الصعيدين الشخصي والاجتماعي، خصوصاً في عالمنا الصناعي والمتطوّر. إنّ عدم توفّر التعليم الجامعي لأبنائنا أمر يتزايد باستمرار وبشكلٍ مثير للقلق.

محاولة فهم الأزمة وحلّها:

لقد حصل خطأ ما في طريقة تعليم أبنائنا. بدأت الدراسات بالإشارة إلى هذا الخطأ منذ المراحل التمهيدية وصولاً إلى الإعدادية والتكميلية والثانوية وحتى الجامعية. ما هو ذلك الخطأ؟ هل نستطيع تعريف المشكلة؟ هل نستطيع تحديدها ومن ثمّ حلّها؟

ستلاحظون في الكتاب أنّ الدراسات التي قام بها مركز غوريان تظهر أنّ الأزمة تكمن في النظام، ممّا يعني أنّ إلقاء اللوم على أيّ شخص أو مجموعة أمرٌ خاطئ. إنّ ربط المسألة بالمدرّسين أو الأهالي أو الطلاب أمرٌ لا يجدي نفعاً. إنّ اللوم كالثلج، فهو يقوم بتجميد المشكلة دون حلّها. المسألة أخطر وأعمق من مجرّد إيجاد من يجب لومه.

بالرغم من ذلك، إلاّ أنّنا نستطيع تحديد الخطأ، وتعريف المشكلة وتحديدها ومن ثمّ حلّها. تتمثل الخطوة الأولى في محاولة كشف من ولّد هذه المشكلة منذ البداية ومنذ صغر أبنائنا. علينا التفكير في طريقة تربيتنا لهؤلاء الفتيان. كما وعلينا تحديد التغيير الذي طرأ على دور الأهالي والأطفال والمدارس في تعليم الفتيان.

ما هي الأسباب؟

في جميع أقطار العالم، كانت العائلات والقبائل والبيئة الطبيعية هي المصدر التربوي لأبنائنا، أيّ أنّ الصفوف والمدرّسين لم يكونوا من يتولّى تلك المسؤولية. تغيّر هذا الواقع منذ ما لا يقلّ عن مئة عام. في السابق، كان الفتيان والرجال يصطادون ويحمون عائلاتهم ويفلحون؛ عملوا في قبائلهم ووجهوا المراهقين إلى أن أصبحوا رجالاً. لم يقتصر ذلك على قارةٍ دون أخرى، إذ إن ذلك انتشر في أوروبا وإفريقيا وآسيا وفي كلّ مكان. عندما افتتحت أوّل مدرسة في المدن منذ آلاف السنين، كانت هناك حاجةٌ لأن يعمل الذكور في مجالات تعتمد على مهارات فكرية ومعرفة عملية. تمّ تدريب الفتيان على بعض تلك القدرات في مدارس حديثة التشييد، إلاّ أنّ معظمهم لم يمضِ الكثير من الوقت داخل المدرسة. انتقلوا في سنّ المراهقة، أو حتى قبل ذلك بقليل، إلى أماكن عملهم.

في بداية القرن التاسع عشر، استمر معظم الفتيان بتعلّم ما يحتاجون إلى معرفته من أمهاتهم وآبائهم ومرشديهم، واكتسبوا بعضاً من المعرفة من خلال

الأعمال التي قاموا بها بأنفسهم. قاموا بتقليد من هم أكبر سنّاً وتمرّنوا وتعلّموا عبر تطبيقهم للمعلومات الجديدة. لم تصبح الكتب المطبوعة أساساً لحياة الفتى التربوية إلاّ منذ حوالى مئتي سنة. عندها بدأت الثورة الصناعية.

نشرت صحيفة «لوس أنجلس تايمز» مقالاً تحت عنوان مثير هو «فلنوقف التعلّم في المصانع»، وهو من كتابة مارغريت غايل، (المديرة التنفيذية للمنظمة الأميركية للأطفال الموهوبين في جامعة ديوك) وهيو أوزبورن (مستشار تربوي). حاول هذان الباحثان معرفة أساس العديد من المسائل التي نواجهها في مدارسنا، وشرحا ما أدّى إلى اتباع النظام التعليمي الحالي. تم ابتكار هذا النظام من قبل الصناعيين الذين أرادوا أن تكون المدرسة مكاناً لتجهيز الأطفال لحياتهم المستقبلية في المصانع. كان على الطلاب التعلّم وفقاً للقواعد المدرسية، وكان احترام القوانين من أهم ما تعلّموه في صفوفهم، إذ إن ذلك يحضّرهم للعمل في المصانع المتكاثرة بسرعة هائلة.

كان هناك هدف منطقي لهذا النظام التربوي الصناعي، إذ إن ازدياد عدد السكان ونموّ البلد تطلّبا التحاق الأطفال بالمدارس.

تمّ إنشاء المدارس وفقاً للحاجات الصناعية في غضون عقود قليلة. لم يعد هناك دور للأهالي والأجداد والمرشدين القبليين في النظام التعليمي الصناعي. لم تعد البيئة التربوية معتمدةً على التدريب العائلي والقبلي. لم يبقَ التعلّم قائماً على التجارب وعلى الحركة الجسدية، وبات متمثلاً بجلوس الطالب في كرسيّه. تعلّم عدد كبير من الطلاب القراءة والكتابة بهذه الطريقة التي غدت الأسلوب التعليمي المقبول.

حاول ملايين الفتيان عبر هذه العقود أن يتأقلموا مع هذا الوضع، وكثيراً ما نجحوا في ذلك. إلاّ أنّ محاولاتهم باءت بالفشل في كثير من الأحيان. انتقل الفتيان من بيئة تعليمية تعتمد على الصيد والفلاحة وتصليح الماكينات وابتكار

أشياء تستطيع القبيلة استخدامها إلى صفوفٍ صغيرة الحجم. لم يعد معظم الفتيان في المدارس الرسمية قادرين على التعلّم بالطرق التي كانت متبعة في السابق والتي كانت تعتمد على الصيد والفلاحة وتصليح الماكينات وابتكار أشياء تستطيع القبيلة استخدامها إلى صفوفٍ صغيرة الحجم. لم يعد معظم الفتيان في المدارس الرسمية قادرين على التعلّم بالطرق التي كانت متبعة في السابق والتي كانت تعتمد على الجدل والنقاش الطلاّبي حول مسائل شديدة الأهمية.

لم يعد هناك في حياة الطلاب أفرادٌ من العائلة يفهمون قدراتهم الفكرية. في السابق، كان الأهالي والأقارب، إضافةً إلى القبائل، يعلّمون الفتى من خلال تجاربه في العائلة وفي البيئة التي تحيط به، التجارب التي قامت على فكرة التدريب والتوجيه. انتقلت المهمة الآن إلى عدد كبير من الطلاّب وإلى مدرّس واحد في كل صف. بات هؤلاء هم الأهل والأجداد والمرشدين والمعلّمين الذين يعملون على تنمية قدرة الفتيان الفكرية. حصل هذا التحوّل الصناعي في المدارس بشكلٍ سريع للغاية، ممّا حال دون إدراكنا لعيوب هذا النظام التعليمي الذي يفتقر أولاً إلى احترام حاجات الفتيان الفكرية وإلى أخذ ميولهم بعين الاعتبار.

من المسؤول عن تجربة الفتيان التعليمية؟

أشار أستاذٌ سابقٌ لي في حديثٍ بيننا إلى الفيلسوف بيرتراند راسيل الذي يقول إنّ ما من تجربة حياتية تضاهي حب العائلة، وإنّ ما من عملٍ قام به وأشعره بالسعادة التي تخالجه عند ممارسته لدوره كأب. لا بدّ وأنّ كلّ من لديه أطفال قد عبّر عن الفكرة نفسها، مستخدماً هذا الكلام المؤثر. كان أستاذي أباً يشارك في حياة أولاده بشغف، وقال إنّ أكثر ما كان يفرحه هو التفاته إلى تجربة أطفاله التعليمية، خصوصاً وأنّه كان يعتبرها إحدى مسؤولياته. قد ينطبق ذلك الشعور علينا أيضاً، إلاّ أنّ معظمنا بعيدين عن كونهم مدرّسين مؤهلين؛ لذا، فإنّ ذلك يتعارض والطريقة التي نتبعها حالياً في تعليمنا لأطفالنا.

هل من واجب الأهل تعليم أطفالهم؟ هل من الواقعي أن نعتبره من واجباتهم في حين أنّهم ليسوا مدرّسين؟ من المنطقي أن نعترف بأهمية دورنا في تجربة أولادنا التعليمية، إلاّ أنّ علينا الوثوق بالنظام التعليمي الذي من واجبه تحضير أطفالنا للتقنيات والمهارات المطلوبة في عالمنا المتطور. علينا الإيمان بهذا النظام، الذي ندفع الكثير من الضرائب والأقساط لتوفيره لأبنائنا، والذي نتوقع من مدارسه الخاصة والرسمية تأمين أفضل المستويات التربوية لأولادنا.

يبعد معظم الأهالي أولادهم من منازلهم ويدخلونهم المدارس المؤلفة من صفوف صغيرة الحجم، غرف فيها عدد من الكراسي والكتب. في ذلك المكان، يتعلّم أبناؤنا القراءة والكتابة والرياضيات والعلوم وبرمجة الكمبيوتر، إضافةً إلى العديد من المواد الأخرى التي يحتاجون إليها ليكونوا ناجحين. يعودون في نهاية يومهم المدرسي إلى منازلنا حيث تكمن مهماتنا الوالدية. من الممكن أنّ بعضنا قد أمضوا اليوم بأكمله يعملون خارج المنزل تماماً كالأولاد. لم يمضِ الأهل وأفراد العائلة والأجداد، إضافةً إلى الجيران والأصدقاء، الكثير من الوقت في أمكنة عملهم وهم يفكرون بواجباتهم المتعلقة بتعليم الفتيان. لم نتآمر مع المدارس لنلحق أيّ ضرر في هذا المجال، إلاّ أنّ ذلك هو الواقع.

ولكن، هل يجب أن يكون الواقع على هذا النحو؟ هل من الممكن أنّ تسليم زمام الأمور المتعلقة بتعليم أولادنا إلى نظام صناعي قد تسبّب، دون إدراكنا، بحصول الأزمة الحالية؟ هل من الممكن أنّ تنازلنا لهذا النظام قد أدّى إلى نكثنا بوعدٍ أعطيناه لأطفالنا، وعدٍ قائمٍ على الالتزام بحبهم والعناية بهم؟

الدور المفقود للعائلة في عالم التربية والتعليم:

إن نظرتم إلى تاريخ عائلتكم للاحظتم أنّ أسلافكم اعتمدوا على أفراد العائلة والأقرباء الذين تربطهم علاقة وثيقة بالطفل ليعلّموه تقنيات الحياة والعمل إضافةً إلى مختلف القيم. ينطبق ذلك على جميع العائلات في مختلف

القارات ومن كلّ العروق وعلى تلك المتحدّرة من أصول اسكندينافية وتيوتونية وإفريقية ورومانية وشرق هندية ويابانية وصينية.

اعتمد أسلافكم، أينما كانوا يقطنون، على فرقٍ من المربّين كان يتزعمها الأهالي والأمهات الرئيسات والآباء الرئيسون في القبائل. كان هؤلاء يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن تعليم الفتى، ولم يكن يتدخل أيّ شخص غريب في تلك المسألة. كان يُنظر إلى الطفل على أنّه امتدادٌ لوالديه وأجداده وقبيلته؛ لذا فإنّ قرابة الدم هي التي كانت تحدّد هذه المسؤولية التربوية. لم يشارك أيّ شخص من خارج القبيلة في تعليم الفتى وهو في الثالثة أو الرابعة أو الخامسة من عمره بل بعد ذلك أي في سنوات المراهقة، عندما كان يتلقى التوجيه المهني من قبل مرشد غريب.

كونراد لورينز، هو عالم أحياء مختصّ بعلم الإنسان، وقد ازدادت شهرته في القرن الماضي عندما قام بدراسة الحماية التي توفرها العائلات لأطفالها. ارتبط عمله لاحقاً بدراسات خاصة بعلم الإنسان ومتعلّقة بالتبعية الإنسانية. قامت هذه الأبحاث الأحيائية بإظهار الدور الرئيس للعائلة في تعليم الأطفال. كما وأدّت نتائجها إلى التحذير من أزمة قد تنشأ إن لم تقم العائلة بمهماتها التربوية.

وضّحت الدراسات ما يشعر به معظم الأهالي وهو أنّ العائلة شديدة الأهمية في عالم التربية والتعليم. في العقدين الأخيرين، أظهر العلماء المختصّون بدراسة الروابط أنّ الأطفال شديدو الاعتماد على أهلهم وعلى أقربائهم في محاولتهم النجاح في الحياة. قام والداي د. جاي ب. (عالم اجتماع) وجوليا غوريان (عالم بعلم الإنسان) بتأليف كتاب تحت عنوان «نزعة التبعية»، وفيه جمعٌ لأبحاث لورينز ولدراسات لعلماء أحياء آخرين، إضافةً إلى براهين من علم الإنسان. يشير والداي أنّ دراسة العائلة وفقاً لعلم الأحياء تظهر أنّ العائلة لا تقتصر على كونها مجموعة حاجات عاطفية، بل إنّها مجموعة أشخاص يتأثر كلٌّ

منهم بسلامة الآخر. أمّا الدراسات القائمة على فكرة التبعية، فإنّها تتعارض والفكرة الشائعة، إذ إنّها تؤكد على أنّ الأهالي يعملون على عدم قدرة أبنائهم على الاستغناء عنهم. كما وتوصّلت هذه الأبحاث إلى أنّ الأبناء أنفسهم لا يتخلّصون، مهما أصبح عمرهم، من حاجتهم للاعتماد على أهلهم. إضافةً إلى ذلك، فإنّ الأجداد وكلّ من هم أكبر سناً لا يتخلّون عن شعورهم بالمسؤولية تجاه العائلة وجميع أفرادها.

هذه هي النظرية القائمة على علم الأحياء والأنثروبولوجيا، وهي وجهة نظر تتعارض والآراء الصناعية. إنّ هذه النظرية هي ما اعتمدنا عليه عند بدئنا بتأليف هذا الكتاب، إذ إنّها قد أظهرت فعاليتها في مختلف المدارس والمجتمعات في بلادنا. لا تقلّل هذه النظرية من شأن المدرسة، إذ إن المدرسة مسؤولة عن تعليم الطفل. إلاّ أنّ للعائلة دوراً متساوي الأهمية، خصوصاً وأنّ الطفل يرتبط دائماً بعائلته، فكرياً وعاطفياً، ممّا يجعلها مسؤولةً عن الاهتمام بقدرته الفكرية. وفقاً لهذه النظرية، تفقد العائلة الشعور بأنّها قد وفت بالمراد إن تخلّت عن دورها في العناية بفكر الطفل وإن تولّت ذلك الأمر مؤسسة تعليمية لا تعرف الولد بشكلٍ كافٍ؛ لذا، فإنّ تعليم الطفل وتنمية فكره أمران تتشارك العائلة والمدرسة في إتمامهما.

لم تؤخذ هذه النظرية القديمة الخاصة بالعائلة أثناء الثورة الصناعية. لقد أصبحت المؤسسات التعليمية مسؤولةً وحدها عن تعليم أبنائنا، وفي هذه المؤسسات أشخاص مؤهلون قد يكونون أفضل من قد يساعد أولادنا. إلاّ أنّ هؤلاء لا تربطهم بالطلاب صلة دم تحتّم عليهم الاهتمام بكل طفل ليصل إلى النجاح في حياته؛ لذلك، فإنّ علاقتهم مهنية بحتة لا تعتمد على الروابط العائلية التي هي أفضل ما قد يؤدي إلى نجاح الطفل.

هل من أهم أسباب الأزمة المدرسية التي يواجهها فتياننا أنّ أهاليهم قد

تنازلوا عن الكثير من واجباتهم للمؤسسات التعليمية؟ هل من الممكن أن يستعيد الأهل بعضاً من هذه المسؤولية للتوصّل إلى حلّ الأزمة التعليمية عند الفتيان؟

أعتقد وكاثي أنّ ذلك ممكن حتماً. إنّ أوّل خطوة يجب اتباعها لحل الأزمة التعليمية لدى الفتيان هي فهم الدور الذي فقده الأهالي والعائلات.

إنعاش دور العائلة في عالم التربية والتعليم:

علينا التوصّل إلى عالمٍ مدرسي تخلو منه العلامات المتدنية والمشكلات السلوكية وانزعاج الذكور. إنّنا لا نطلب من الأهل والأقارب إنكار دور المدارس والمعلّمين في مساعدة فتياننا على النمو. إنّنا ندعم المدرّسين كما نساند الأهل، لكنّ أملنا هو أن يتمّ إنعاش دور العائلة ليعود إلى تحمّلها، كفريقٍ مترابط، مسؤولية إنجاح تجربة الفتى التعلّمية. على العائلة التدخل بشكل عميق في تلك المسألة، ممّا يحتّم ألاّ تكون بعيدةً عن الأجواء التربوية التي تحيط ابنها.

في الفصول المتبقية من الكتاب عددٌ متساوٍ من النصائح للأهل والمدرّسين، ونأمل أن تساعد هذه الإرشادات على إنعاش المشاركة بين مدرستي الطفل الأولى والثانية، أي منزله وصفّه.

بات الآباء والأمهات يعملون بعيداً عن عائلاتهم، ولقد أدّى التقدّم الصناعي إلى انتقال العائلات بعيداً عن الأجداد والقبائل والأقارب. كما أنّ الطلاق والقيم العائلية المتغيّرة قد ولّدت ضغوطات إضافية لتحاول العائلة أن تبقى مترابطة. بسبب كلّ ذلك، فإنّ أطفالنا بحاجة فعلاً إلى ما تدعو إليه النظرية الصناعية. إنهم بحاجة إلى إشراف مكثّف بعيداً عن الأم والأب والأجداد والأقارب والمرشدين. لقد أصبح هؤلاء الأولاد معتمدين وبشكل كلي على المدرسة، ولم يكن الأمر كذلك في الماضي. لا يمكننا العودة إلى زمن القبائل التي تعلّم أسلافنا ونموا فيها.

إلاّ أنّ الأزمة التربوية الحالية تحتاج إلى أن نعيد التفكير بدور الفريق العائلي الذي ساعد الفتيان (والفتيات) في زمن أسلافنا. سنعرّف هذا الفريق بشكل أكثر تفصيلاً. يشرف الوالدان على عمل هذا الفريق الذي قد يتألف من:

- الوالدان.
- الأجداد.
- أقارب آخرون كالأعمام والأخوال والأنسباء.
- مدرسون خصوصيون.
- مدربون.
- جيران.
- أصدقاء.
- وكالات خدماتية.
- رجال دين.
- الأخوة والأخوات.
- زملاء.

على كلّ شخص ومجموعة في محيط الطفل الانضمام إلى فريق تربوي يؤسسه الأهل ويكون محوره تعليم الطفل. إن قام هذا الفريق بمهمته بشكل كامل، ستتقلّص إمكانية وقوع أية مشكلة أو أزمة تعليمية، فقد أصبح لدى الطفل حوالي عشرة أشخاص يهتمون بمساعدته خارج نطاق المدرسة.

تأسيس الفريق: أول خطوة نحو حلّ الأزمات وتفاديها:

من الممكن تكوين هذا الفريق ممّا هو متوفر في محيطكم، وما يسهّل هذه العملية هي صلات الدم. إلاّ أنّ عليكم الاستعانة بهذه الروابط الأسرية لزيادة الفريق قيمةً وليس للاعتماد عليها بشكل كلّي.

هناك بعض الأساليب التي يمكنكم اتباعها في منزلكم أو حيّكم لتنظيم عمل الفريق:

ـ يقطن الجدّ جورج في فلوريدا، وهو مهندس متقاعد. يواجه ابنكم في كاليفورنيا صعوبات في الرياضيات أو العلوم. يمكنكم الاتصال بالجد جورج وتحديد موعد لدرس خصوصي يعطيه لابنكم أسبوعياً عبر الهاتف أو الإنترنت.

ـ تطالع الجدة إيستيل الكثير من الكتب، ويبعد منزلها بضع ساعات. يواجه ابنكم صعوبات في المنهاج اللغوي. تستطيع الجدة إيستيل زيارتكم مرةً في الأسبوع لمساعدة ابنكم على القراءة والكتابة.

ـ يقطن ماكس، الصديق الأقرب إلى ابنكم، في حيٍّ قريب. والده مبرمج كمبيوتر، وبوسع ماكس وابنكم تمضية بعض الوقت معه أمام شاشة الكمبيوتر لتعلّم ما يحتاجان إليه.

ـ أنت أمٌّ لولدين أو ثلاثة، ويعاني أحدهم من مشكلة مدرسية. لربما أنّ لديك ابناً أو ابنةً أكبر سناً قد التحق أو التحقت بالجامعة. تستطيعين أن تطلبي من الأخ والأخت الأكبر سنّاً الاتصال بالأخ الأصغر مرةً في الأسبوع. يكون هدف هذا الاتصال تصحيح الفروض المنزلية أو لفت النظر إلى مواعيد تقديم البحوث أو المساعدة في تعلّم مادةٍ ما.

ـ إنّ الفريق الذي يرأسه الوالدان أوّل من بوسعه العمل على معالجة الأزمة التي يواجهها فتياننا. سيتابع هذا الكتاب إرشادكم حول كيفية التأكد من أنّ هذا

الفريق يقوم بمهامه بتوفير كل ما يحتاج إليه الفتيان ليتعلموا: مرشدون تربطهم بالفتيان علاقةٌ طيبة ووثيقة.

تقوم ساندرا وهي أمٌّ من دير بارك، واشنطن، بتأسيس فريقها الخاص وأطلعتنا على تجربتها.

لدي خمسة أبناء. أدركت بعد ولادة الابن الخامس. إنني بحاجة إلى أن أستقيل من وظيفتي لأمنحهم أفضل مستويات التربية والتعليم. كانت مدارسهم تقوم بواجباتها على أكمل وجه، لكن أبنائي كانوا بحاجة إضافية إلى إرشادي لهم.

إنني أمضي الكثير من وقتي وأنا أساعدهم في دروسهم وأنا أقلّهم من مكان إلى آخر. كما وأنني أستغل الوقت في إصغائي إلى مشكلاتهم وفي محاولة حلّها. عندما أواجه مسألة صعبة، أمضي الكثير من الوقت محاولةً البحث عمّن قد يمدّني بالعون.

إنّ هذه الحملة الأخيرة مثيرة للاهتمام إذ إنّ ساندرا قد أسست فريقاً يستطيع مساعدة أبنائها في حلّ المشكلات التعلّمية ويشاركهم النجاحات أيضاً.

إن قمتم بتقليص ساعات عملكم أو إن استقلتم منه لتركزوا على تعليم أبنائكم، فإن المسألة الرئيسية تبقى أنّ فعالية الفريق لا تكون ممكنة دون أن تمضوا بعض الوقت في تأسيسه وتكوينه. ستنسون هذا المجهود المضني حالما تتوصلون إلى نتائج إيجابية.

بعد تأسيس الفريق، من المهم ألا تنتظروا حدوث مشكلة ما لتطلبوا اجتماع الأعضاء. من الممتع تنظيم اجتماعات دورية للاحتفال بالمراحل المهمة من حياة ابنكم.

تمتدّ فعالية هذه الفرق إلى الفتيات أيضاً، وليس هناك ما يجعل الفرق أكثر

فعالية مع الفتيان. إننا نلفت النظر إلى أهمية هذه الفرق في تعليم الذكور لأنّ أبناءنا بدأوا بمواجهة الفشل في التعلّم، بينما حصلت الفتيات على مساواة تعليمية أكبر في العقدين الأخيرين.

اقتراحات

تقويم أعضاء الفريق

هناك أسئلة عليكم أخذها بعين الاعتبار أثناء تقويمكم للأفراد الذين تفكرون بإمكانية انضمامهم إلى فريقكم التربوي:

- هل يحبّ هذا الفرد الأولاد؟ (مجرّد كون الشخص المعني فرداً من العائلة لا يعني بالضرورة أنّه يستمتع بتمضية الوقت مع الأولاد).
- هل يعي هذا الفرد ما يكفي من المعلومات الخاصة بكيفية التعامل مع الأطفال وفقاً لمراحلهم التنموية؟
- هل يستمتع ابني بالمشاركة مع هذا الفرد؟
- هل من الممكن أن يعتبر هذا الفرد المشاركة في فريقي من أهم أولوياته؟

لقد قمت وكاثي بتدريب الكثير من العائلات والمجموعات على إنشاء هذا الفريق لمساعدة أبنائهم على التعلّم. يشرّفنا أنّنا أصبحنا نشارك العائلات هذه المسؤولية والفرح عند تقدّم الفتى أكاديمياً وعند ضمان نجاحه في الحياة. أرسل لنا أحد الفرق في جورجيا رسالةً فيها النتائج التي توصل إليها.

يتكوّن هذا الفريق من خمس عائلات، لكلّ منها أبناءٌ ذكور. يعاني الفتيان في ثلاث من هذه العائلات من صعوبات في التعلّم، وفي إحدى العائلات، كانت الفتاة هي من تواجه المشكلة المدرسية. أمّا العائلة الخامسة، فالأولاد فيها قد تخرجوا من المدرسة. نشأت صداقة بين هذه العائلات الخمس عندما أصبح الأولاد أصدقاء في المدرسة الإعدادية.

عندما قرّرت هذه العائلات تطبيق فكرة الفريق التربوي، عقدت اجتماعاً للأهل والأولاد، وتحدث الجميع فيه عن طبيعة الفريق. أطلقوا عليه اسم «قبيلة التعلّم» ووزعوا المهمات وفقاً لمهارات كلّ شخص. من حسن الحظ أنّ في العائلات الخمس راشداً مختصاً بمجالٍ ما قد يساعد أحد الأولاد.

كبر الأولاد وأصبحوا في المرحلة الثانوية. أثبت الفريق فعاليته في تجربتهم التعلّمية. ابتكر الفريق شعائر خاصة سيقومون بها عند تخرّج أولادهم من المدرسة. اطّلع الأصدقاء في الحيّ على ما قام به الفريق ومدى تحسّن الأداء الأكاديمي للأولاد، ممّا أدّى إلى ازدياد شعبية هذه الفكرة واستخدامها.

لقد أنعشت هذه العائلات، إضافةً إلى ساندرا، دور الفِرَق التعليمية في حياة الشبان والشابات، وقامت بهذه الخطوة لتواجه أزمةً يعاني منها الذكور.

قد لا يتشجع الأهل للعمل على تغيير النظام التعليمي الحكومي في معظم الأحيان. يشعر الأهالي (والمدرّسون) بالإحباط وبعدم القدرة على حلّ أي من المشكلات التربوية أو على تغيير المؤسسة التعليمية. يتمحور الفصل السادس حول إرشاد الأهل إلى ما عليهم القيام به لتغيير المدارس.

لقد بدأت ساندرا وفريقها، إضافةً إلى فِرَق أخرى، بمواجهة المشكلات المدرسية من خلال أمرين: أولهما التأكد من أنّ لكل عائلة حلفاء يستطيعون مساعدتها على تخطي الشعور بعدم القدرة على تغيير الواقع المرير. إضافةً إلى ذلك، تؤمّن هذه الفِرَق لأولادها الأصدقاء الذين يستطيعون مساعدتهم على المثابرة، حتى عندما لا تكون هناك مقدرةٌ لتغيير المدارس. يزول شعور الأهالي أو الطلاّب باليأس بعد أن تصبح العائلة بأكملها بمثابة مدرسة صغيرة تستطيع القيام بخطوات كثيرة عند الحاجة.

مهما كانت المسألة التي قد تواجهونها في المدارس، فإنّ الفِرَق التعليمية تساعد على تحسين وتعزيز تجربة أبنائكم التعليمية.

الخطوة التالية:

سنقوم في الفصل التالي بخطوة ثانية وهي إلقاء النظر على طريقة تعلّم الفتيان وما يجري داخل الدماغ الذكوري. إنّ الهدف من ذلك هو اكتشاف الأسلوب الطبيعي لتعلّم الفتيان، ممّا سيساعد الأهل والمدرّسين على تغيير الطُّرق التعليمية والأساليب التوجيهية. يؤدي كل ذلك إلى الاستجابة إلى حاجات الفتيان كافةً.

أصبح من الواضح أنّ لا ضرر من استخدام كلمة «أزمة». أظهرت الدراسات في التسعينيات أنّ المدارس لا تساعد الفتيات في الرياضيات والعلوم وعلى صعيد الثقة بالنفس وفي تعلّم الكمبيوتر. لقد استطاع مجتمعنا تحديد المشكلة التي تواجهها الفتيات، ممّا ساعد على حلّها وعلى تغيير تجربة الفتيات التعلّمية بشكل أفضل.

هناك الآن أزمة أخرى تتطلّب تدخلنا لمساعدة أبنائنا. إن لم نستجب إلى ذلك، فإنّ مستقبل شبابنا ومجتمعنا معرّضٌ للخطر. لم يعد من الممكن أن يشكّل الفتيان غالبية من يرسبون في المدرسة، ولم يعد من المقبول ألاّ نقوم بأيّة خطوة لإنهاء تلك المسألة.

عند وصول الأب والأم إلى المدرسة مع ابنهم الذي يبلغ من العمر الثلاث سنوات، كان في داخلهم الكثير من الآمال والطموحات. افترض الوالدان أنّ المدرّسين في هذه المدرسة التمهيدية، وفي جميع المدارس، سيدركون ماهية قدرة ابنهما الفكرية. لذا، فإنّهما اعتقدا أنّ هؤلاء المعلّمين قادرون على تعليم ابنهما بشكل فعّال وبطريقة تتناسب وطاقته وقدرته الفكرية.

هل يعرف المدرّسون طريقة تعلّم الفتيان؟ هل يعرف الأهالي ذلك؟ ماذا يحصل إن كان الجميع على معرفة بطريقة تعلّم الذكور؟ هل يؤدي ذلك إلى تعلّم أبنائنا بشكل أفضل؟

فلنكتشف ذلك.

الفصل الثاني

كيفية تعلّم الفتيان

من المهم احترام طيش الفتيان ونشاطهم وحركتهم تماماً كما يحترم المرء الطبيعة بما فيها من أعاصير عنيفة وشلالات متدفّقة.

سارة راديك، كاتبة وأم

هل سبق واصطحبتم أولادكم إلى ملعب وراقبتم تفاعل الأطفال وكيفية لعبهم مع بعضهم؟ سنحت لي الفرصة أن أقوم بذلك مراتٍ عدّة عندما كانت ابنتاي صغيرتين. كنت أستمتع بمشاهدتهما وهما تتسلّقان الجدران وتقفزان وتستكشفان ما حولهما. في بعض الأحيان، كنت أجلس على مقعدي وأقرأ كتابي، وفي مرّاتٍ أخرى، كنت أشاركهما اللعب.

كانتا تطلبان مني أن ألعب دور الوحش.

فهمت بسرعة، تماماً كالكثير من الآباء، أنّ ذلك هو أحد الأدوار التي يتوقع الأولاد أن نلعبها. لذا، كنت أطاردهما وذراعيَ مفتوحتين إلى أن وجدا أمكنةً آمنة يختبئون فيها.

لديّ ابنتان، لذا فإنّ تجربتي في الملاعب اختلفت عمّا كان يحصل في صغري. لابنتي شخصيات تأثرتا بشدّة بها كيلبيري فين وتوم سوبير وهاري بوتر. إلاّ أنني لطالما كنت مدركاً أثناء تربيتي لابنتيّ أنّ ليس لدي أبناء. كثيراً ما قمت

وكاتي بمقارنة ما لاحظه كلٌّ منّا في الملاعب. بما أنّها أمٌّ لابنين، كانت تشاركهما اللعب في صغرهما تماماً مثلي. إلاّ أنّها بدأت بعدها بالجلوس والاكتفاء بمراقبتهما وهما يلعبان. لم تكن طبيعة لعبهما مماثلة لتلك الخاصة بالفتيات.

هل لاحظتم في حياتكم الفرق بين الفتيان والفتيات؟ هل وقفتم في ملعب ما أو راقبتم الأولاد في الشارع ولاحظتم الاختلاف في الطاقة بين الذكور والإناث؟ هل تساءلتم إن كانت ملاحظاتكم دقيقة وإن كان هناك اختلاف حقاً؟ هل كانت غريزتكم تدلّكم على أنّ هذا الفرق موجودٌ حقاً؟ هل حاولتم فهم سبب هذا الاختلاف وإن كان جزءاً من الطبيعة الإنسانية أو نتيجةً للعوامل الاجتماعية؟ هل تساءلتم إن كان التفاعل بين هذين العاملين هو ما يؤدي إلى التباين؟

يقوم العلماء والمفكرون الاجتماعيون منذ عدة عقود بدراسة كيفية تعلّم الفتيان والفتيات من خلال مراقبة تفاعلهم الاجتماعي وحوافزهم الشخصية. كما ويدرس هؤلاء النموّ النفسي للفتيان والفتيات، إضافةً إلى علاقاتهم الاجتماعية ومهامهم التي يحددها جنسهم. إنّ هذه الدراسات البيداغوجية والاجتماعية والنفسية قد زودتنا بمعلومات عن الاختلاف في تأثير المجتمع الغربي على الفتيان والفتيات.

إلاّ أنّ العقدين الأخيرين شهدا طريقةً جديدة لفهم نمو الأولاد وتعلّمهم، وهي طريقةٌ علمية بحتة. يعتمد هذا الأسلوب الحديث على دراسة ما يحدث داخل دماغ الأولاد وأجسامهم أثناء عملية النمو الجسدي والكيميديوي والعصبي.

تمّ العمل في العقد الأخير بشكل خاص على تطبيق العلوم المتعلّقة بالدماغ لفهم كيفية تعلّم الفتيان والفتيات، وقام بذلك العلماء والمفكرون الاجتماعيون، إضافةً إلى الأهل والمدرّسين. تركّزت دراسات هؤلاء على تحديد الاختلاف التعلّمي بين الجنسين، خصوصاً وأنّ الأبحاث الحديثة درست الدماغ وأظهرت أنّ هناك اختلافاً بيولوجياً بين الفتيان والفتيات؛ لذا، فإنّ ما توصّلت إليه الدراسات

يؤيد ما لاحظتموه غرائزياً في الملاعب، خصوصاً وأنّها برهنت وجود فروقاتٍ جوهرية بين الجنسين، وبالتحديد في تفاعل أجزاء الدماغ مع بعضها وفي النمو العصبي والكيميديوي إضافةً إلى التركيب البنيوي للدماغ.

يهدف هذا الفصل إلى إرشادكم إلى ما يجري داخل عقول الفتيان. إننا نحاول توضيح ذلك، لا لأنّه أمرٌ مثيرٌ للاهتمام فحسب، بل لغايةٍ ثانية: حثّكم على استخدام ما توصلت إليه العلوم الخاصة بالدماغ لإعادة النظر في ما يجري في مدارسنا ومنازلنا وأحيائنا وملاعبنا. نودّ أن تلتفتوا إلى مدى احترام هذه الأماكن لدماغ الفتيان ولقدرتكم الفكرية، آملين أن تغيّروا ما يجب تعديله. إن كان الهدف منح أبنائنا أعلى مستويات التعليم والتربية، فإنّه لمن المهم أن يتمّ فهم طبيعة العقل الذكوري من قبل الأهل والأقارب، إضافةً إلى المدرسين وإلى أيّ شخص يهمّه مستقبل المجتمع.

علم جديد:

هناك علمٌ جديد في مجتمعاتنا وهو علمٌ يستكشف الاختلافات بين الجنسين. يعتبر بعض العلماء أنّ أساس هذا التباين اجتماعي، بينما يظن بعضهم الآخر أنّه بيولوجي. نعتقد أن الأساس هو تفاعل العاملين مع بعضهما، إلاّ أننا نركّز بشكل أكبر على العامل البيولوجي. إنّنا لا نعتمد على العلوم البيولوجية فحسب، بل نحاول معرفة ما تؤول إليه الأبحاث الأنثروبولوجية والنفسية والاجتماعية. لذا، فإنّ بحوثنا تتمحور حول جميع العلوم الخاصة بالإنسان وبطبيعته. عندما تكون لدينا تساؤلات عن كيفية تعلّم الإنسان، نبدأ بحثنا عن التوضيحات المتعلقة بذلك من خلال الاطلاع على نتائج الدراسات البيولوجية. نعتقد أنّ أساس أيّ حوار متعلّق بالأولاد هو استيعاب طبيعتهم عوضاً عن مجرّد التفكير بتأثير البيئة عليهم. بعد أن نصل إلى درجة مقبولة من

فهمنا لتكوين الدماغ ولما يجري فيه عند الجنسين، نستنجد عندها بالعلوم الاجتماعية. يعتمد عملنا على العلوم البيولوجية إلاّ أنّه لا يقتصر عليها.

لم تكن النظريات المعتمدة على الطبيعة الإنسانية أمراً ممكناً في الماضي. منذ حوالى الأربعة أو ستة عقود والنظريات التربوية تعتمد على الدراسات الاجتماعية، وإن هذه الأبحاث هي ما ارتكزت عليه الأنظمة المدرسية والأساليب التعليمية. لم تكن صور الأشعة أمراً ممكناً في الخمسينات والستينات والسبعينات، ممّا أجبر المفكرين الاجتماعيين على محاولة تفسير كيفية تعلّم الأطفال دون وجود أيّة براهين علمية. لم يكن باستطاعتهم رؤية ما يجري داخل الدماغ ولم يقدروا ملاحظة الفرق بين تكوين العقلين الذكوري والأنثوي. لذلك، كانت دراساتهم قائمةً على النظريات الاجتماعية وليس على تلك التي تغوص في عالم الطبيعة الإنسانية. اضطر هؤلاء المفكرون إلى التشديد على تأثير المجتمع والبيئة بسبب عدم توفّر الدراسات الخاصة بطبيعة الذكور والإناث.

كانت بعض المعلومات التي توصّلت إليها أبحاثهم دقيقة وواضحة. إنّ لأنظمتنا المدرسية إيجابياتٍ عديدة، إلاّ أنّ الدراسات الحديثة الخاصة بالجنسين تنفي بعض ما أظهرته الأبحاث في القرن الماضي. منذ حوالي الثلاثين سنة، كانت هناك فكرة خاطئة تقوم على أنّ الفتيان والفتيات يتعلمون بالطريقة نفسها. وفقاً لتلك النظرية، إن التعلّم لا يتأثر بجنس الطفل، أي أنّها لم تعتبر أنّ هناك أيّ اختلاف في تكوين الدماغ بين الجنسين. كان الدماغ بالنسبة إلى المفكرين مجرّد صفحة بيضاء تتأثر في ما بعد بالبيئة التي تؤدي إلى كون الطفل ذكراً أم أنثى.

تعتمد النظريات الجديدة على العلوم البيولوجية والاجتماعية معاً، ولا تقوم على فكرة أنّ القدرة الفكرية تتشكّل نتيجةً للمجتمع. ما تشدّد عليه النظريات الحديثة هو التفاعل بين العوامل البيولوجية والاجتماعية، ممّا يؤدي إلى تحديد

القـدرة الفكرية عند الأولاد. يعـتـمـد هذا الكتـاب على هذه الفكرة في مـجـمل أجزائه، لذا فإنكم ستلاحظون تأكيدنا المستمر على أهمية التفاعل بين الطبيعة والبيئة في القدرات الفكرية. إننا مدركون بأنّ هناك الكثير من الأمور الخاصة بالدماغ التي لم يتمّ اكتشافها حتى اليوم. إلاّ أننا متأكدون من أنّ المعرفة الحالية، التي توصّلنا إليها من خلال الدراسات المختلفة، تساعد على إعادة هندسة البيئة التعليمية بطرقٍ تدعم أبناءنا وبناتنا وتوصلهم إلى النجاح.

يستطيع المدرّسون والأهل أن يعتمدوا على هذه الدراسات الحديثة لابتكار أساليب جديدة لتعليم الفتيان (والفتيات) اللغات والقراءة والكتابة والرياضيات والعلوم والرياضة والفنون. إن هذه النظريات تساعد على توفير الرعاية اللازمة للفتيان (والفتيات) الحسّاسين أو الذين يفتقرون إلى الحوافز التعليمية أو الذين يعانون من صعوبات تعلّمية. أصبح من الممكن أن يدرك الأهل التحديات التي يواجهونها في تربيتهم لأبنائهم وبناتهم.

في معظم الأحيان، تُظهر الاستراتيجيات والنظريات المتأتية من هذه الدراسات أنّ هناك اختلافاً بين الجنسين في التفكير والأحاسيس والتعلّم. يتمتع الفتيان بطاقة تعلّمية خاصة ترسم الدرب الذي يوصلهم إلى النجاح الأكاديمي، وتظهر هذه الطاقة قبل ولادتهم. عندما نفهم هذه الطاقة الذكورية، نكتشف وسائل جديدة لتعليم الفتيان ولتنمية قدراتهم الفكرية.

طاقة الذكور:

«نذالة الفتيان» كتابٌ فيه مجموعة من التجارب التي يتحدث عنها رجال في العقدين الرابع والخامس من عمرهم. يتمحور ما كتبه هؤلاء الرجال حول تجاربهم التعلّمية في الصغر، ومنها تجربة تشارلي الذي وُلد في نيويورك في العام 1960:

«عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، كنت أشارك أصدقائي بلعبة من ابتكارنا. كنّا ننزل إلى الطابق السفلي حيث يعمّ الظلام المكان. كانت بداية اللعبة قائمةً على إضاءة المكان من قبل أحدنا ومن ثم رمي الأسهم المريَّشة على بعضنا. كنّا نختبئ إلى أن سمعنا حركةً ما، فنندفع إلى الخروج من مخبئنا ونرمي الأسهم. بعد فترة من الهدوء، كان أحدنا يصرخ من شدّة ألمه، وعند إنارة المكان، كنا نرى من أصيب بالسهم. في إحدى المرات، وجدنا أن أحدنا أصيب على خدّه وعلى مقربةٍ من عينيه. بعد هذه الحادثة، بتنا نضع النظارات الواقية على أعيننا».

عندما أعرض هذه التجربة في جلساتي التدريبية، كثيراً ما أقول مازحاً: «أليست هذه لعبة تقليدية عند الفتيان؟» في معظم الأحيان، يعبّر أحد الأهالي أو المدرّسين عن رفضه لما قلته، خصوصاً وأنّ ما كان يجب القيام به، بعد إصابة الفتى على خدّه، هو التوقف عن اللعب.

من المنطقي قول ذلك، إلاّ أنّ الجميع، وبعد نهاية الجلسة التدريبية، يتفقون على أنّ النشاطات الذكورية تشير إلى تمتع الفتيان بطاقة متمثلة بالحركة الجسدية. حتى عند قيامهم بالمطالعة، يقوم الفتى بتحريك ساقيه أو بقضم أظافره أو بمراقبة ما يجري من حوله. إنّ طاقة الذكور تجعل من تجربتهم التعلّمية قائمة على المجازفة مثل وضع النظارات الواقية والاستمرار باللعب، وإن كانت اللعبة خطرة. تتمثل هذه الطاقة بكثير من الحركة الجسدية ومن تحريك مختلف الأغراض. قد تكون هذه الطاقة تنافسية، ولكنّ ذلك ليس أمراً ضرورياً. تتطلّب هذه الطاقة في بعض الأحيان التفوّه ببعض الكلمات ولكنّها تعتمد على السكوت في معظم الأوقات. يتعلّم الفتيان عادةً وهم يثيرون الفوضى في المكان مثل اللعب في الظلام أو رمي الأسهم. كثيراً ما تعتمد الطاقة لدى الفتيان على القيام بعمل واحد وليس بعدة أعمال في الوقت نفسه.

إنْ وصلنا إلى إجماع بأنّ الطاقة هذه تسمّى بطاقة الفتيان، يسعنا عندها أن نتفق على أنّها إحدى أهمّ مصادر القوة في أيّة حضارة. يتمّ تشييد منازلنا وأبنيتنا من خلال هذه الطاقة التي تنشأ منها شوارعنا وتنطلق مركباتنا الصاروخية بسببها. إنّ فتياننا هم ممن يستخدمون ألعاب الفيديو التي تعتمد على الحركة كأساس لها. بعض هؤلاء الفتيان هم من يصبحون في ما بعد المتسابقون في حلبات السيارات التي نستمتع بمشاهدتها وعلماء الفضاء الذين يتحدّون الزمن والمساحات الكونية. هؤلاء الفتيان هم من سيصبح منهم الجندي الذي يحمينا والمعلّم وعامل البناء وصاحب المتجر والكاتب. يتعلم الفتيان من تجاربهم التي قد تبوء بالفشل أحياناً، إلاّ أنّ أخطاءهم هذه هي التي تجعل منهم رجالاً ناجحين في المحاماة والرياضة والإدارة وفي مختلف المجالات التي تنشر التجديد وروح الشباب في مجتمعاتنا.

إنّ الفتيان محصّنون بقوّة جسدية وبعزم يؤهلانهم لمواجهة الحياة وصعوباتها. يكتسب الفتيان هذه القوّة، التي لا تعني عدم تمتّعهم بالحنان والرقة، وذلك من خلال التجارب القاسية التي يمرّون بها والتي قد لا يراها البعض أو قد يتجنبها ويخاف منها. إنّ محور حركة الفتيان وإنّ أساس كل ما يقومون به هو عقولهم.

هل ينطبق الأمر نفسه على الفتيات؟ إنّ عقولهن هي المحرك الرئيس للكثير من تفاصيلهن الحياتية، فالفتيات قادرات على التألّق في عالم الرياضة، كما وأنهنّ يصبحن نساءً يقدن الطائرات ويقمن بمختلف الاكتشافات، نساءً يحترمن القيم ويحافظن عليها في مجتمعاتهن وبلادهن. يدخل بعض هذه الفتيات عالم المحاماة أو الطب أو الهندسة. كل هذه الأمور صحيحة وعالية الدقّة، إذ إن التركيز على طاقة الفتيان لا يعني التقليل من قدرة الفتيات والنساء أو التشكيك في حياتهن ونجاحاتهن. إلاّ أنّ هذا الاهتمام بطاقة الذكور هو بمثابة النظر إلى

مرآة مقعّرة. بالرغم من محاولاتنا المستمرة للوصول إلى التساوي بين الجنسين، فإنّ دراستنا لقدرة الفتيات الفكرية تجعلنا، وبشكل مباشر أو غير مباشر، نقارنها بالفتيان، خصوصاً وأنّ الاختلاف بين الجنسين واضح. أحسست بهذا الاختلاف عندما كنت ألعب مع بناتي، كما وشعرت به عندما لم تستطع كاثي اللعب مع أبنائها بالخشونة نفسها التي كانت تتمتع بها حركات أجسامهم. إنّ هذا الاختلاف لا يقلّل من حبّ الأهل لأطفالهم ولا يؤثر على رغبة المدرّس أو المدرّسة بالتعليم، إلاّ أنه واقع نلتمسه كلّ يوم.

إن هذه الطاقة تبرز في أيّ عمل يقوم به الفتيان، وإن كان لغوياً كالقراءة والكتابة وإلقاء الخطابات، وهناك القليل من الفتيات اللواتي لا يلاحظن هذه الطاقة. هناك عدد قليل من الأمهات اللواتي لا يدركن أن لدى أولادهن موهبة ملفتة للنظر كلّما تعلّق الأمر بالتعلّم وبفهم العالم من خلال اللعب مع الآخرين. يبرع الفتيان في التعلّم في مجموعات تقوم بتسلّق الجدران أو بالتعلّم في جوّ يملؤه الصخب والحركة والمتعة التي تخلو من الحساسيّة المفرطة والشجار. يتحمّل الفتيان الخسارة ويواجهون الفشل بالمحاولات المستمرة، وأكثر ما يسعدهم هو تلقّي الثناء عند ابتكارهم فكرة جديدة وناجحة. يتوق الفتيان إلى سماحنا لهم بالتحرّك بحريّة وكأنّهم مخلوقات بدائية، كما ويعشقون التعلّم في أماكن مظلمة. إن طبيعة الفتيان هذه تظهر وبشكل واضح في أشعار مارك ستراند الذي يعتبر أنّ الأولاد لا يتحرّكون بهدف كسر الأغراض التي تعترض طريقهم بل بغية الحفاظ عليها كأجسام متكاملة.

يشعر جميعنا بهذه الطاقة لكن أصبح بوسعنا الآن فهمها بشكل علمي. لم يدرك تشارلي وأصدقاؤه بأنهم سيصبحون أساساً لعلم جديد، إلاّ أنّ ذلك هو ما حصل بالفعل، إذ إنّهم يوضحون مدى تأثير طاقة الفتيان على قدرتهم الفكرية وعلى أدائهم في المدرسة (تجدون في لائحة المراجع في نهاية الكتاب عدداً من

الكتب والمصادر الأخرى التي يمكنها إطلاعكم بشكل أشمل على نتائج الفحوصات والأشعة التي ساعدتنا على دراسة عقول الأولاد).

الدماغ عند الذكور:

إنّ الأساليب الحديثة المتّبعة في عالم الأشعة تمكّننا من رؤية الاختلافات التركيبية والوظيفية بين عقول الفتيان والفتيات. إنّ دراسة أية صورة أخذت بواسطة الأشعة لأدمغة الإناث والذكور أثناء القيام بأي عمل تظهر اختلافات في حركة أجزاء هذه الأدمغة وفي مستوى الحركة الدماغية في هذه الأقسام القشرية. إنّ هذه الدراسات هي أساس عملنا، إذ أنها جعلت من الممكن تحديد اختلاف طبيعة الفتيان وطريقتهم في التعلّم.

أعلنت نانسي فورجير مؤخراً من مكان عملها في جامعة ماسيتشوستس في منطقة آمهيرست أنّه قد تمّ تحديد ما لا يقل عن مئة اختلاف بين أدمغة الإناث والذكور. تتعاون نانسي مع باحثين آخرين ستتعرفون إليهم في هذا الكتاب مثل جيل غولدشتاين وهي أستاذة محاضرة لمادة الطب النفسي في كلية الطب في جامعة هارفرد. تقوم جيل بدراسة الاختلافات الدماغية بين الذكور والإناث وذلك بحثاً عن علاجات جديدة لأمراض تصيب الجنسين. إنّ نتائج هذه الأبحاث العلمية هي ما نعتمد عليه، كاثي وأنا، في محاولتنا لابتكار استراتيجيات جديدة تساعد الأهل والمدرّسين في عملهم مع الفتيان والفتيات.

نذكر في «هل كنت تعلم» بعض ما توصلنا إلى رؤيته من خلال دراستنا البيولوجية لما يجري داخل الدماغ لدى الذكور. يمكنكم رؤية أقسام الدماغ المختلفة من خلال الرسوم التي تظهر لكم شكل الدماغ، كما وتستطيعون الانتباه إلى الاختلافات في الدماغ بين الذكور والإناث من خلال صور الأشعة التي أضفناها إلى كتابنا هذا.

كلّما كان استعمال المعلّمة للكلمات وللوصف أقلّ كثافةً، اصبحت مسألة الاختلاف في الدماغ أكثر أهمية. بشكلٍ عام، يعتمد الدماغ عند الذكور على العناصر المكانية والمتحرّكة أكثر من الدماغ عند الإناث. لذا، فإنّ الذكور يتأثرون بشكل أكبر بالرسوم البيانية والصور والأشياء المتحركة أكثر من تأثرهم بالكلمات وبرتابتها. إن استخدمت المعلمة الكثير من الكلمات، فإنّ ذلك يؤدي إلى ملل الذكور وعدم تركيزهم على ما تقوله أو حتى إلى استغراقهم في النوم. إنّ هذا الأمر لا يحصل مع الإناث، وما هذا إلاّ أحد الاختلافات بين الجنسين.

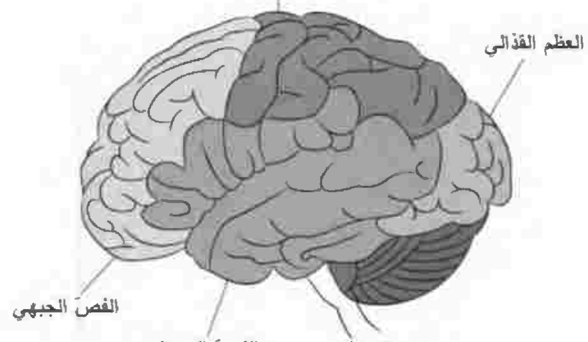

القسم الخارجي للدماغ

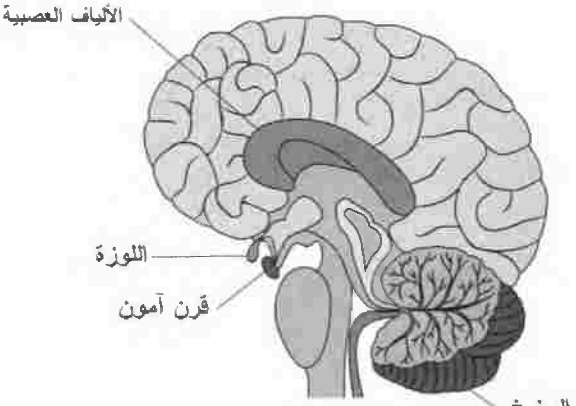

مقطع عرضي للدماغ
أشرف على هذه الرسومات كيفن رو وريتشارد شيبيرد

هل كنت تعلم؟

- يقوم الفتيان بعدد أكبر من الأفعال المندفعة والمجازفة بسبب ارتفاع مستوى الدوبامين في الدم. يؤدي هذا الأمر إلى تدفق المزيد من الدم إلى المخيخ (يتحول الـ L-dopa وهو حامض أميني في الدماغ إلى دوبامين). تساهم هذه العوامل في جعل الفتيان يتمتعون بقدرة تعلّمية أقل من قدرة الفتيات عندما يجلسون بهدوء في أماكنهم. يحتاج الفتيان إلى الحركة للتعلّم بشكل أفضل، إذ إن هذه الحركة ضرورية لتعمل الوظائف الذهنية لديهم بشكل أكثر سلاسةً.

- إن الألياف العصبية في دماغ الفتيان أكبر حجماً من نظيراتها في دماغ الفتيات (قد يصل الفرق إلى 25 بالمئة). أظهرت الدراسات أنّ الألياف الأنثوية تسمح للتواصل بين النصفين الدماغيين، ممّا يؤدي إلى قدرة الفتيات على الانتقال من وظيفة إلى أخرى بشكل أكثر سهولة من الفتيان.

- في الفصّ الصدغي الأنثوي أعصاب أكثر قوة من تلك الموجودة عند الذكور. تعمل هذه الأعصاب على تعزيز الذاكرة الحسّية والقدرة السمعية. يلتقط الفتيان عادةً عدداً أقل من التفاصيل التي يتفوّه بها الآخرون، ويحتاجون إلى عدد أكبر من التجارب الحركية لضمان التعلّم.

- تعمل الذاكرة بشكل مختلف عند الجنسين. يحتاج الفتيان إلى مزيد من الوقت لتخزين المعلومات التي يحصلون عليها في الصف وخاصةً ما يكتب منها. إلاّ أنّ الذاكرة الذكورية تسهّل عملية تخزين المعلومات على شكل لوائح. لذلك، فإنّ المعلومات التي تُعطى للفتيان بهذا الشكل الذي يعتمد على التصنيف يسهّل عملية التخزين.

- يكثر نشاط الفصّ الصدغي عند الإناث وينمو بشكل أسرع مقارنةً بالذكور. لذلك، تتخذ الفتيات عدداً أقل من القرارات المندفعة. كان هذا الاندفاع

أكثر أهمية في الماضي عندما كانت التجربة التربوية تعتمد على الطبيعة وعلى العمل المنفرد.

- تنمو الأقسام الدماغية المسؤولة عن اللغة بشكل أسرع عند الفتيات. في الدماغ الأنثوي استخدام أكبر لهذه المراكز اللغوية المسؤولة عن الكلمات والتعابير.

- لدى الفتيات كميات أكبر من الأستروجين والأوكسيتوسين، ولهذه المواد تأثير مباشر على الكلمات واستخدامها. لدى الفتيان كمية أكبر من التوستسترون المتعلّق بالجنس والعنف بشكل مباشر. يرتفع مستوى الأوكسيتوسين عند الإناث عند تواصلهن الشفهي مع الآخرين. لدى الفتيان كمية أقل من الأوكسيتوسين وقدرة لغوية أقل، ممّا يؤدي إلى عدم تعلّمهم بالشكل نفسه عند الجلوس والتحدث. لا يميل الفتيان إلى ذلك بسبب طبيعتهم الفطرية، ويتعلّمون بشكل أفضل عند قيامهم بحركات مختلفة أو بنشاطات تنافسية أو بأفعال عنيفة (سيتعرض الفصل الرابع إلى هذه المسألة).

- يستخدم الفتيان مساحة أقل من الدماغ بسبب تقسيمهم له إلى أجزاء مختلفة. يعمل الدماغ الذكوري بكمية دماء تقل بنسبة 15٪ عن الدماغ الأنثوي. كما لا يعتمد تعلّم الفتيان على القيام بعدد كبير من الوظائف في الوقت نفسه. لذلك، فإنّ أداء الفتيان يصبح أفضل عندما يعطون اهتمامهم الكامل إلى وظيفة واحدة. يسوء أداؤهم عندما ينتقلون من وظيفة إلى أخرى بشكل سريع، خصوصاً وأنّ ذلك يؤدي إلى شعورهم بالإحباط. إنّ الإحباط يرفع مستوى الكورتيزول المعزّز للضغط النفسي ويزيد من الأدرينالين في الدم. لذلك، فمن غير المفاجئ أن يتسبب الذكور بعدد أكبر من المشكلات السلوكية في الصفوف.

- تعمل الأبحاث على دراسة جنس الطفل وعلاقته بالأقسام الدماغية، بما في ذلك القسم القذالي (المسؤول عن الوظائف البصرية) والقسم الجداري

(المسؤول عن الحركة والرياضيات) وعنق الدماغ (المسؤول عن الحركة اللاإرادية وعن الوظائف الجسدية الضرورية كدقات القلب والتنفس والحرارة).

- إنّ تكوين الدماغ الذكوري يجعله قادراً على تجديد نفسه وإنعاشها من خلال الاعتماد على أوقات مخصصة للراحة، وفقاً للعالم روبين جار المتخصّص بالأعصاب. إنّ هذا التشديد على الراحة يؤدي إلى شعور الفتيان بالنعاس في الصف وإلى استغراق الرجل في النوم أثناء مشاهدته للتلفاز بعد يوم شاق. تظهر صور الأشعة ضرورة أوقات الراحة هذه، ولكنّها تتسبّب بالكثير من المشكلات في الصف. يشكّل الفتيان أكبر نسبة من الطلاب الذين تتشتّت أفكارهم وهم ينجزون فروضهم والذين ينامون أثناء المحاضرة أو الذين يتململون ويحاولون إبقاء أنفسهم على درجة معينة من التركيز بواسطة ضرب الأقلام على الطاولات.

- في دماغ الفتيات تدفق أكبر للدم ممّا يجعلهن أكثر قدرة على التركيز. قد تشعر الفتاة بالملل أثناء محاضرة ما، ولكنّها تستطيع أن تبقى متيقظة وأن تدوّن الملاحظات. توصل روبن جار إلى أنّ في الدماغ الأنثوي وفي حالة الركود عدداً متساوياً من الوظائف التي وجدها في العقل الذكوري أثناء محاولة حلّ المسائل الحسابية. لذلك، فإنّ الراحة الذهنية تختلف بين الجنسين، خصوصاً وأنّ الدم يتدفق بالكمية نفسها في دماغ الإناث حتى في أوقات الراحة. أمّا تدفق الدماء في دماغ الذكور، فإنّه يتقلّص في هذه الحالة.

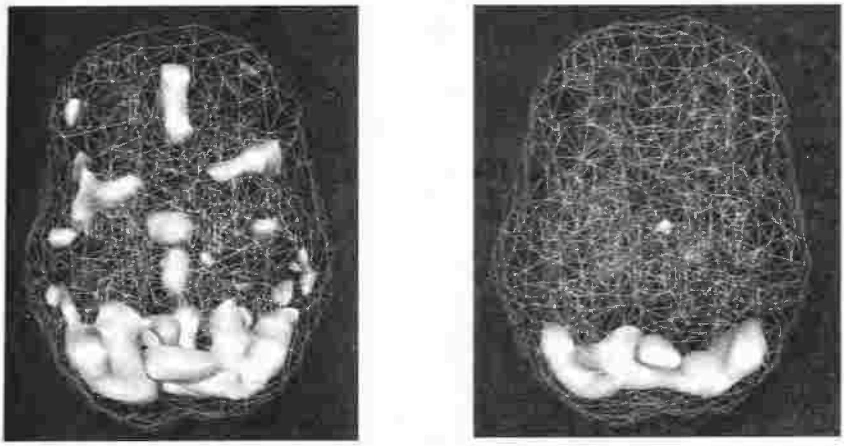

في الجهة اليسرى صورة أشعة لدماغ فتاة، وفي الجهة اليمنى دماغ فتى. إن الدماغين في حالة ركود. لاحظوا العدد الأكبر من الوظائف في دماغ الأنثى. (أخذت هذه الصورة من قبل د. دانييل آيمين)

الفتيان والتفاوت في القراءة والكتابة:

ما هذه الاختلافات إلاّ أبسطها، لكنّ الانتباه إليها يساعد المدرّسين بشكل كبير وفوري ليفهموا بعض الأمور التي يختبرونها في المنازل وفي المدرسة. لعلّ أهم هذه الظواهر هو السبب الذي يجعل من الفتيات متقدّمات على الفتيان بحوالي سنة أو سنة ونصف في قدراتهنّ اللغوية أي القراءة والكتابة. إنّ هذا التفاوت يمتدّ من السنوات المدرسية التمهيدية إلى الصفوف المتقدّمة وذلك وفقاً لوزارة التربية الكندية وللدراسة التي أجرتها جمعية التعاون الاقتصادي في 35 بلداً صناعياً أخرى (كما ذكر في الفصل الأول). إنّ أدمغة الفتيان غير مركّبة بالطريقة نفسها التي تجعل من الفتيات متفوقات في المواد التي ترتكز على القراءة والكتابة وتركيب الجمل. لذا، فإنّ أي مجتمع يشدّد على هذه القدرات اللغوية هو مجتمع تكثر فيه المشكلات عند الفتيان والشبّان. الفتيات قادرات على التعامل مع صعوبات القراءة والكتابة وذلك بسبب تكوين أدمغتهن التي تتألف من أقسام كثيرة مهمتها الرئيسة هي الوظائف اللغوية التي تتمحور حول حفظ

المعلومات بشكل سريع، والتركيز والإصغاء إلى الآخرين مطوّلاً، إضافةً إلى القدرة على القيام بعدّة وظائف كلامية في الوقت نفسه.

التعارض بين الفتيان وأساليب التعليم التقليدية:

لقد سبق ولمّحنا إلى هذا التعارض، إلاّ وأنّه أصبح بإمكان الأهل والمدرّسين، وبعد أن شرحنا تكوين الدماغ عند الذكور، أن يواجهوا مشكلة عدم توافق مدارسنا وأنظمتنا الأكاديمية مع قدرة الفتيان على التعلّم.

هناك عدد هائل من الفتيان الراسبين الذين لا يبذلون أيّ جهد في صفوفهم والذين يعانون من مشكلات سلوكية. من الضروري أخذ هذا الواقع بعين الاعتبار مع محاولة عدم حصر التفكير بالتفاوت اللغوي بالرغم من أنّ ذلك يشير بمفرده إلى سبب الاختلاف بين الجنسين. إن فكرنا بذلك الواقع، يمكننا أن نلاحظ العديد من العناصر الذكورية التي تشكّل تضارباً بين الفتيان والنظام التعليمي التقليدي، ومنها:

ـ لقد كان النظام التعليمي في السابق يعتمد على أساليب تحثّ الطالب على التعاون، ممّا ينشئ علاقات وثيقة مع الآخرين. بينما كانت الصفوف تعتمد على التدرّب والإرشاد والتمرّن اليدوي، أصبحت الآن مرتكزةً على أسلوب واحد يعتمد على التعلّم في مجموعات تقوم بأعمال لغوية لا تتطلّب أي مجهود جسدي.

ـ لم يعد التعليم يعتمد على الحضور إلى المزارع أو في الأسواق أو على الذهاب في رحلات تثقيفية. أصبحت وسيلة التعليم الرئيسة هي الكتاب.

ـ أصبحت الحركة الجسدية عائقاً بعدما كانت في الماضي إثباتاً على طاقة الطالب وحيويته ورغبته بالذهاب إلى أيّ مكان بغية التعلّم.

لقد أصبح الطالب مجرّد شخص يقرأ في كرّاسه المدرسي، وأصبح النظام التعليمي مرتكزاً على ذلك وخصوصاً في السنوات الخمسين الأخيرة. ليس ذلك

أمراً سيئاً للغاية إلاّ أنّ ذلك لا يتوافق كلّياً مع قدرة الفتيان الفكرية. لا بدّ وأنّكم التمستم هذا التعارض بين النظام التعليمي والفتيان في منازلكم وفي المدارس. إنّ الفتيان يحاولون بصعوبة التعلّم بالطرق المتوفرة لديهم، ممّا يحبط المدرسين والعائلات ويتسبّب باعتبار الفتيان طلاباً فاشلين يصعب عليهم التعلّم الأمر الذي يؤثر على ثقتهم بأنفسهم.

في جلسة تدريب نُظمت مؤخراً في مركز غوريان تحوّل الحديث عن طاقة الفتيان وقدرتهم الفكرية إلى مناقشة عن المشكلات التي تواجه أبناءنا. طرح أحد المدرّسين الموجودين سؤالاً بالغ الأهمية يتمّ التطرّق إليه في أية جلسة تتمحور حول طبيعة الإنسان: «هل علينا الاستمرار في محاولة تغيير فتياننا وطاقتهم؟ أم هل علينا تغيير النظام التعليمي؟» توسعت مدرسة أخرى في المسألة وسألت إن كانت مسألةً بيداغوجية بحتة أم هاجساً أخلاقياً ومعنوياً.

علينا الإجابة على هذه الأسئلة، خصوصاً ونحن محصّنون بمعلومات علمية عن طبيعة أبنائنا.

إن كنتم تتفقون مع الأفكار التي تمّ عرضها في الفصل الأول ـ أي أنّ هناك مشكلة تعليمية تواجه الفتيان بالرغم من أنّ الكثير منهم ناجحون ـ وإن كنتم توافقون على أنّ العلوم الحديثة قادرة على إظهار المسار التعليمي للفتيان، المسار الذي يتعارض ومعظم الأساليب التعليمية المستخدمة في يومنا هذا... إن كانت تلك هي وجهة نظركم، فلا بدّ أنّكم تودّون تفسير مشكلة الفتيان وانسحابهم من المدرسة ورسوبهم وأخذهم جرعات من الريتالين وشعورهم بالخلل التعليمي. هل كل هذه الأمور مجتمعةً تشكّل مشكلة أخلاقية ومعنوية تواجهها مجتمعاتنا؟

ما نعتقده، كاثي وأنا، هو أنّ المسألة تكون أخلاقية في كل مرة يحاول المدرّسون فهم السبب الذي يدفع الفتيان إلى خلق المشكلات السلوكية في الصف. يحاول المدرّسون إيجاد تفسير لهذه المسألة في كلّ مرة يناقشون السبب

الذي يجعل المعدّل العام للامتحانات منخفضاً تحت تاثير علامات الفتيان المتدنّية. كما ويطرح الأهل السؤال نفسه عندما يتعذّبون لاتخاذ القرار المتعلّق بإعطاء أبنائهم جرعات من الدواء لحلّ المشكلة، المشكلة التي يدركها الفتيان أنفسهم كلّما شعروا أنّ هناك زملاء لهم يتعلّمون بشكل أسهل خالٍ من العوائق.

«هل علينا الاستمرار في محاولة تغيير فتياننا وطاقتهم؟ أم هل علينا تغيير النظام التعليمي؟».

للإجابة عن هذا السؤال، على المدرّسين والأهل والمدرسة أن يقرروا ما يجب تغييره في المنازل والصفوف والمجتمع. عليهم أن يحدّدوا ما يجب تطويره في طبيعة الأولاد أو في طريقة تعلّمهم وتعليمهم، إضافةً إلى ما في المجتمع من عناصر يجب تحسينها. كما عليهم اختيار ما لا يجب العبث به وما لا يمكن لأحد المساس به إن كانت الغاية هي الوصول إلى وضعٍ تعليمي أفضل. من خلال تحديد كل هذه التفاصيل، تتمّ الإجابة، بشكل مباشر أو غير مباشر، على الأسئلة التالية:

- كم تسهل عملية تغيير طبيعة الذكور وقدرتهم الفكرية لتتماشى والنظام التعليمي في البلاد الصناعية؟

- كيف يمكننا تحسين النظام والوصول إلى نتائج أفضل تضمن نجاح الفتيان أكاديمياً؟

- كيف يمكن تغيير النظام التعليمي الحالي ليتوافق مع أدمغة الذكور ولنصل إلى أفضل النتائج التي نرغب بأن يحصدها أبناؤنا؟

أتمنى أن تكون هذه الأسئلة قد قامت بحثّكم لمحاولة حلّ المشكلة ولقراءة الصفحات التالية. إنّ المنطق المستخدم في إجاباتنا عن هذه الأسئلة مبنيٌّ على أبحاث علمية تساعدنا على حلّ الأزمة التي نعاني منها.

تصحيح فكرة تعليمية خاطئة:

قامت جانيس كونداي وهي أمٌّ لثلاثة فتيان بمشاركتنا تجربتها التالية:

قبل تقاعدي، كنت مدرّسة للّغة الإنكليزية ومستشارة مدرسية. قمت بتربية أبنائي جميعهم بالطريقة نفسها، معتمدةً على أن أقرأ معهم من اليوم الأول، أتحدث معهم، أضمّهم وأمنحهم ما يحتاجون إليه من حنان ورعاية. كانت إحدى أولوياتي التأكّد من تربيتي لفتيان حسّاسين يحبّون القراءة ويعبّرون عن أحاسيسهم عبر البكاء، غير آبهين بنظرة المجتمع المقولبة. كنت أرغب بأن يكبر أولادي ويصبحوا أزواجاً مهذّبين ومحترمين يتبادلون الآراء ويتحدثون مع زوجاتهم.

كبر أبنائي وأصبحوا شبّاناً فاضلين إلاّ أنّ ذلك لم يتمّ بالشكل الذي خططت له. كبر أحدهم وفي داخله حبّ عميق للمعرفة ولتغذية روحه وذلك من خلال عمله كصحافي ومن خلال حبّه للقراءة، هذا الحبّ الذي لطالما أظهرته أمامه وزرعته فيه منذ الصغر. لطالما كان قارئاً ماهراً، إلاّ أنّ ابنيّ الآخرين اكتفيا بما كان تعلّم اللغة الإنكليزية يتطلّبه، دون القيام بأي مجهود إضافي. صدمني هذا الواقع في بداية الأمر. مهما حاولت وبالرغم من محاولتي الدائمة للتأثير عليهما، لطالما واجهت الفشل برفضهم لوالدتهم ـ معلّمة اللغة الإنكليزية ـ حتّى أنّهما كبرا وهما يفتقدان إلى حبّ تبادل الآراء والأحاسيس.

فكّرت كثيراً بأبنائي، خصوصاً خلال مطالعتي الدائمة لنتائج الأبحاث العلمية الخاصة بالدماغ. أعلم أنّ للأهل وللمدرسة تأثيراً كبيراً على الطفل، إلاّ أنّني أودّ معرفة نوع هذا التاثير. أعلم أنّ دماغ الإنسان قابلٌ للتغير، إلاّ أنّ ذلك لا يعني بالضرورة أنّنا قادرون على تغييره ليتوافق مع ما أريده أو مع ما يرغب به النظام التعليمي. لطالما قمت ومدارس أولادي ما بوسعنا لينموا بالشكل الذي رأيناه مناسباً، إلاّ أنّ أبنائي قاوموا ذلك باستمرار. من الممكن أنّنا لا نملك القدرة

على التاثير على الفتيان بالشكل الذي رسمناه لأنفسنا. قد يكون تأثيرنا عليهم مختلفاً تماماً عمّا نريده. لقد حثّني أبنائي على إعادة النظر في دور المدارس والأهل في جعل الفتيان يتعلّمون بالطريقة التي يرونها مناسبة.

إنّ وجهة النظر التي عبّرت عنها جانيس بغاية الأهمية خصوصاً وأنّ هدفنا هو تطوير النظام التعليمي وتغيير الأساليب المتّبعة في مجتمعاتنا لتعليم الفتيان. إنّ إحساسها بعدم تأثر عقول الفتيان بالمجتمع وبما يحاول فرضه عليهم هو أمر يحثّنا على التفكير بالمسألة. هذا الشعور نفسه الذي عبّرت عنه جانيس هو ما دفع الأساتذة المشاركين في ورشة العمل إلى طرح السؤال حول إمكانية تغيير الفتيان أو وجوبيته.

هل يمكننا تغيير فتياننا؟

لقد تلقّنت جانيس، كما لقّن المجتمع جميعنا، أنّ قدرة الأطفال الفكرية تتأثر بالبيئة المتواجدة فيها لدرجة أنها بمثابة صفحة بيضاء تمتلئ مع الوقت. لذا، فإنّ طريقة تفكير هذا الطفل تغدو ذكورية أم أنثوية نتيجةً للتأثيرات الاجتماعية. من هذا المنطلق، ولأنّ المجتمع هو ما يؤثر على جنس الطفل وليس طبيعته عند الولادة، فإنه من الممكن الاستنتاج بأنّ طريقة تفكير الفتى (أو الفتاة) تتبلور بالطريقة التي نريدها والتي يحدّدها النظام التعليمي في الدول الصناعية.

عندما أمعنت جانيس التفكير بأبنائها وكيف غدوا، شعرت بأنّ عليها إعادة النظر في آرائها وأفكارها. أدركت أنّ هناك أموراً أساسية يتمتع بها أبناؤها ولم تستطع هي أو المدرسة تغييرها.

وصلت جانيس إلى استنتاجاتها عن عقل الذكور معتمدةً على تجربتها كأم وكمعلّمة، إلاّ أنّه اطّلعت أيضاً على الأبحاث التي نشاطرها وإياكم في هذا الكتاب. من الضروري الاستعانة بما تظهره صور الأشعة عن الدماغ، خصوصاً

عندما يكون الهدف هو دراسة أسباب المشكلات التي يواجهها الفتيان في مدارسهم والوصول إلى حلول مناسبة تتوافق وطبيعة هؤلاء الفتيان.

إنّ المثير للاهتمام في هذه المسألة هو أنّ جانيس لم تعد مضطرة إلى تقييم استنتاجاتها المبنية على تجربتها الخاصة. فإنّ صور الأشعة للدماغ تظهر طبيعة طاقة الفتيان، وهي ما يجب أن نتسلّح به لنفرض التغيير على مجتمعاتنا ولنصحّح الأفكار التعليمية الخاطئة. لم يعد من المقبول التفكير بأنّ عقول الفتيان مرنة ويمكن العبث بها وتغييرها، غير آبهين بطبيعة أبنائنا وطاقاتهم وأساليبهم في التعلّم.

أصبح من الواضح أنّ تفكير الأطفال يميل إلى تفكير الذكور أم الإناث وفقاً لتكوين الدماغ، ممّا ينفي الفكرة الخاطئة التي تعتبر أنّ الإنسان قادرٌ على أو يحتاج إلى إعادة هندسة العقل ليتماشى مع النظام التعليمي الحالي أو مع النظريات السائدة.

كيف يتم تحديد الجنس في الدماغ:

يتمّ تحديد الجنس في الدماغ عبر ثلاث مراحل تمّ شرح أولها من خلال الدراسات الوراثية. أمّا المرحلة الثانية، فقد توصّلت إليها الأبحاث الهرمونية الخاصة بعلم الغدد. أخيراً، تم تفسير ما يجري في المرحلة الثالثة من قبل البحوث النفسية والاجتماعية.

المرحلة الأولى: عندما يتمّ الحمل، تتكوّن الكروموسومات التي تشير إلى جنس الجنين. لقد قام الباحثون في جامعة كاليفورنيا بتحديد هذه الكروموسومات التي تتشكّل في دماغ الجنين والتي تؤدي إلى نموّ الذكر أو الأنثى.

المرحلة الثانية: تقوم هذه الكروموسومات بإفراز كميات كبيرة من الهرمونات الذكورية والأنثوية، ويتمّ ذلك في رحم المرأة، ممّا يؤدي إلى تكوين الدماغ على

الشكل الأنثوي XX أو الذكوري XY بين الشهرين الثاني والخامس، يتمّ إفراز أكبر كمية من الهرمونات في الرحم وبشكل متكرر. يتمّ تحديد جنس الجنين، ويتكوّن الدماغ وفقاً لذلك، بعد أن يتمّ إفراز التوستسترون وغيره من الهرمونات. توصّل الباحثون إلى ذلك عبر دراساتهم في مختلف الجامعات حول العالم، ومنها: جامعة لندن، وجامعة ماكماستر في كندا، وجامعة كاليفورنيا وجامعة بينسيلفانيا.

المرحلة الثالثة: يولد الطفل ذكراً أو أنثى ويظهر جنسه لوالديه وللمجتمع من خلال تصرّفاته وكلامه في ما بعد. ما يؤدّي إلى كون هذه الحركات والكلمات ذكورية أو أنثوية هو التكوين البيولوجي للدماغ الذي يعتمد على عوامل وراثية. يقوم من حول الطفل بترجمة هذه الإشارات والصفات، ويشمل ذلك والديه وأقاربه ومن ثمّ مدرّسيه والطاقم المدرسي وأفراد المجتمع الذي ينتمي إليه. لذا، فإننا ندرك جنس الطفل من خلال هذه التصرفات ومن خلال ما يقوله الطفل في ما بعد. أصبح من الممكن دراسة ما يجري داخل الدماغ بواسطة النظريات القائمة على صور الأشعة، وتتمّ هذه الدراسات في مختلف أقطار العالم، بما في ذلك جامعة دينفر وجامعة هارفرد.

من المهم التذكّر أنّ هذه الدراسات لا تعتمد على عامل واحد دون سواه، أي أنّها تدرك أهمية التفاعل بين عاملي الطبيعة والبيئة في تحديد الجنس. كما وأنّ الباحثين يقومون بدراسة القوى الوراثية والهرمونية والعصبية والاجتماعية في محاولتهم لمعرفة كيف يتمّ تكوين الدماغ على الشكل الأنثوي أو الذكوري.

كما وأنّ الباحثين يدركون أنّنا نولد ذكوراً أو إناثاً. منذ حوالي الثلاثين سنة، كان المفهوم الشائع يقوم على أنّ تحديد الجنس أمرٌ منوطٌ بالمجتمع وبتأثير البيئة على الطفل، إلاّ أنّ الأبحاث العلمية الحالية وضعت حدّاً لهذه الفكرة. إنّ جنس الطفل مسألة فطرية، إلاّ أنّها تتأثر بعد ذلك بالمجتمعات.

لماذا يكون التكوين الفطري للكروموسومات وللدماغ ذكورياً أو أنثوياً؟ لا يستطيع أي باحث إعطاء إجابة مؤكدة. يجيب مَنْ يعتبر الدين مرجعاً له في جميع المسائل، بما في ذلك طبيعة الإنسان، قائلاً إنّ الله خلقنا كذلك. تحاول الأبحاث العلمية في علم الأحياء التطوّري تفسير المسألة معتبرةً أنّ الاحتمال الأكبر هو أنّ الاختلافات بين الجنسين قد نشأت بسبب ملايين السنوات التي حصل فيها تطوّر الإنسان بعدما كان يعتمد على الصيد وعلى القبائل التي ينتمي إليها.

بما أنّ الذكور كانوا يصطادون الحيوانات، فإنّهم كانوا بحاجة إلى قدرة فكرية قوامها المهارات الحركية والهندسية. كان من المهم أن يروا ما حولهم بوضوح، إلاّ أنّهم لم يكونوا بأمسّ الحاجة إلى القدرة على الانتباه إلى التفاصيل. أمّا الإناث، فإنّ هذه المهارة من أهم ما اعتمدت عليه للعناية بأطفالهن بالشكل المطلوب. لذا، فإنّ دماغ الذكور كان مكوّناً بطريقة تضمن القدرة على الحركة الجسدية، فالدم يتدفق إلى القسم المسؤول عن هذه المهارة عند الذكور أكثر من الإناث. لم يكن من الضروري أن يتمّ تشغيل الأقسام الخاصة بالمهارات اللغوية، خصوصاً وأنّ تلك القدرات لم تكن مطلوبة أثناء عملية الصيد.

مهما كان مفهومكم، دينياً أو علمياً، فإنّ التقنيات الحديثة تسمح لنا برؤية الاختلاف بين الجنسين في تكوين الدماغ. لا يملك أيٌّ منا آلات لتصوير الدماغ بواسطة الأشعة، إلاّ أنّنا قادرون على الاطلاع على ما توصل إليه العلماء المختصون بعلم الوراثة أو الأحياء أو الاجتماع.

طبيعة الفتيان والفتيات في المنازل:

لن نحصر كلامنا بالدراسات الكروموسومية والهرمونية، لذا فإننا نطلب منكم التفكير بأبنائكم. هل تلاحظون تمتعهم بمهارات فطرية؟ هناك اختلاف بين

الأطفال وليست هناك صفات تنطبق على جميع الفتيات أو على كل الفتيان. إلاّ أنّ الأهل يلاحظون عادةً بعض النقاط المذكورة في «هل كنت تعلم؟»

التخلّي عن فكرة تعليم الجنسين بشكل موحد ودعم الطريقة الفعلية لتعلّم الفتيان

لقد اطلعتم على الأبحاث البيولوجية والاجتماعية التي تشدّد على الاختلاف في الدماغ بين الجنسين. هل من الممكن أن يغيّر المجتمع، المتمثل بالمدرسة أو العائلة أو البيئة ككل، تكوين الدماغ الذي يحدّده جنس الفتى؟ هل تستطيع الأمّ مثال جانيس تطوير الأقسام اللغوية في دماغه من خلال التحدث إليه أو بواسطة قراءتها للكتب أمامه؟ هل يجب أن تقوم المدرسة بإجبار الفتى على التعلّم بالطرق التي يعتبرها المدرّسون أقل تعقيداً؟

هل كنت تعلم؟

- منذ اليوم الرابع بعد الولادة، تبدأ الإناث بتمضية ضعف الوقت الذي يمضيه الذكور في النظر إلى عيون الراشدين. يظهر الاختلاف بين الجنسين في توثيق العلاقات وفي القسم الدماغي الخاص بالنظر منذ عمر الأربع سنوات.
- منذ عمر الأربعة أشهر، تتفوق الإناث على الذكور في معرفة الأشخاص الغرباء والقريبين. يبدأ الاختلاف في وظائف الذاكرة والحركة بين الجنسين منذ هذا العمر. يمضي الأطفال الذكور وقتاً أطول بالنظر إلى الأغراض المتحركة حولهم، بينما تميل الإناث إلى النظر إلى أولياء أمورهن بشكل مباشر.
- تنتبه الفتيات إلى الكلمات التي يتفوه بها أولياء أمورهنّ. تنمو الأقسام الدماغية اللغوية عند الفتيات بشكل أسرع من الفتيان.

- عندما يمسك الفتيان بالدمى، فإنّهم ينزعون رؤوسها أو يضربونها أو يرمونها أو يتعاملون معها بطريقة أكثر عنفاً ممّا تفعل الفتيات. أمّا الإناث، فإنهنّ يبدأن بالتحدث إلى الدمى في عمر مبكر. ينمو القسم اللغوي في دماغ الإناث بسرعة أكبر مقارنةً بالذكور، ممّا يجعل هذه المسألة غير مفاجئة. في الدماغ الأنثوي إفرازٌ لكميات أكبر من الأوكسيتوسين ممّا يحثّهن على توثيق العلاقات مع كلّ ما حولهن من أشخاص وأغراض. أمّا الذكور، فإنّهم يستخدمون الأغراض هذه كمجرّد أدوات للتعلّم من خلال الحركة.

ما هو موقفكم من هذه الأسئلة؟ إنّ العلوم الحديثة هي بمثابة تحدٍّ للأمهات والآباء والأجداد والمدرّسين وصانعي القرار، إذ إنّها توصّلت إلى خلاصةٍ تشرح العلاقة بين طبيعة الفتى وتجاربه الحياتية. نمضي بضع سنوات فقط ونحن نشرف على أطفالنا بشكل يومي ودقيق. ماذا نريد القيام به في هذه السنوات؟ ما هي الرعاية التي نرغب بمنحهم إيّاها وفقاً لطبيعتهم ولقدرتهم الفكرية المذهلة؟

إنّ الأطفال أفرادٌ يختلفون عن بعضهم وإنّ الجميع يتعلّم باستمرار مهارات وطرق تعبيرية جديدة. إلاّ أنّ الدراسات العلمية الحديثة تظهر أننا لا نستطيع تغيير القدرة الفكرية التي يحددها جنس الطفل ولا يمكننا أن نجعل الفتى جديراً في مهارةٍ ما أو في طريقة تعبيرية محدّدة ما لم تكن جزءاً من تكوينه العقلي. من المستحيل تغيير شخصية المرء ليتحوّل من إنسانٍ خجول إلى إنسان اجتماعي. ينطبق ذلك على القدرة الفكرية، إذ أننا لا نستطيع تغييرها عند الذكور ليصبحوا أكثر مهارةً في مجالات تتفوق فيها الإناث.

من المهمّ أخذ هذه المسألة بعين الاعتبار عند مناقشة وضع الذكور في نظامنا التربوي الحالي، خصوصاً وأنّ هذا النظام يقوم على مفهوم إمكانية تغيير القدرة الفكرية لدى الأطفال. بسبب هذا المفهوم الخاطئ، لا يتمّ تدريب المدرّسين

ولفت نظرهم إلى العلوم المعتمدة على فكرة الاختلاف بين الجنسين. يتمّ تجاهل هذه الناحية التنموية، ويظنّ المدرسون والأهل أنّ لا تأثير لجنس الطالب على طريقة تعلّمه وتعليمه. لذا، ينتشر مفهوم تعلّم الأولاد بالطريقة نفسها، ولا يعترف الكثير من المعلّمين وأولياء الأمور بإمكانية تعليم الأولاد وفقاً لجنسهم، الأمر الذي يؤدي حتماً إلى نتائج إيجابية.

تطالب الدراسات الحديثة بالتخلّي عن المفاهيم الخاطئة، وبذلك فإنّها تشكّل الخطوة الثانية نحو حل أزمة الفتيان التعليمية. عند تطبيق هذه الخطوة في المدارس، يُطلب من المدرّسين الاطلاع على صور الأشعة الخاصة بالدماغ عند الجنسين. كما ويتمّ تدريبهم على فهم الواقع المتعلّق باختلاف القدرة الفكرية والتعلّمية عند الذكور الإناث.

من الممكن تحقيق ذلك من خلال تصميمكم وتعاونكم مع المدارس. أصبح من الممكن الاعتماد على صور الأشعة لفهم التكوين الكروموسومي ولإدراك الاختلاف بين الجنسين في ما يتعلّق بدماغهم وبقدراتهم الفكرية. يمكنكم نشر هذه المعلومات في منازلكم ومدارسكم ومجتمعاتكم، إضافةً إلى جامعاتكم ومعاهدكم. بوسعكم لفت نظر المجتمع إلى عدم دقة المفهوم القائم على إمكانية تغيير القدرة الفكرية، كما وعليكم إظهار التاثير السلبي لهذه الفكرة على تجربة الفتيان التربوية. عندما تلتقون بذكور يعانون من مشكلات تعلّمية، يمكنكم تفسيرها بأنّ نظامنا التربوي لا يتماشى وقدرات الفتيان الفكرية. يعتبر هذا النظام أنّ هناك خللاً لدى الفتيان يمنعهم من التعلّم بطريقة سليمة. ويصرّ على أنّ هناك إمكانية لتغيير الفتيان. كما وينظر هذا النظام إلى الذكور على أنّهم أشخاصٌ لا يستطيعون تغيير أنفسهم، ممّا يعني أنّ هناك خللاً ما يتطلب أخذهم لجرعات معينة من الأدوية.

إن استمر مجتمعنا بالتركيز على المفهوم الخاطئ الخاص بإمكانية تغيير

القدرة الفكرية، فإنّ عدد الفتيان ذوي الأداء الأكاديمي السيئ سيزداد. سيستمر هؤلاء الذكور بالرسوب وبهدر السنوات دون تنمية مهاراتهم التي عليهم اكتسابها. كما وأنّ شعورنا بالإحباط بسبب عدم تغيّرهم سيبقى في نفوسنا في خضمّ هذه النزاعات والصعوبات.

مخطّط يحترم عقول الفتيان ويحميها

إن كنتم توافقوننا الرأي بأنّ النظام التربوي الحالي لا يأخذ قدرة الفتيان الفكرية وتكوين أدمغتهم بعين الاعتبار ولا يمنحهم الفرص التعلّمية المناسبة؛ وإن كنتم تعتقدون مثلنا أنّ على المدارس والمنازل بذل مجهود أقل لتغيير الفتيان ومجهود أكبر لمساعدتهم على التعلّم وفقاً لطبيعتهم، فإنّكم تستطيعون عندها أن تعتبروا أنفسكم جزءاً فعّالاً من الفِرَق المدافعة عن حقوق الفتيان التربوية والمطالبة بحماية عقولهم واحترامها. يمكنكم الانضمام إلينا في عدم محاولتكم تغيير طبيعة الفتيان أو الفتيات وفي العمل لتحقيق هدفين هما:

1- التعبير عن طبيعة الطفل وتنميتها. إنّ طبيعة الطفل الفطرية هي أهم ما يؤثر على تعلّمه، وتتمحور مهمة من يساعد هذا الطفل على أن تظهر هذه الطبيعة وأن تنمو في بيئته.

2- التعويض عن المجالات التي يضعف أداء الطفل فيها بسبب طبيعته الفكرية. لا تبرز مهارة الطفل في بعضٍ من المواد بسبب طبيعته أو بيئته أو لأنّ لهذا الطفل سمات تعلّمية تختلف عمّن حوله.

يعرض الجزء الثاني من الكتاب ضرورة التعويض عن هذه المجالات التي يفتقر الطفل إلى المهارات المؤدية إلى نجاحه فيها. لذا، فإنّ الجزء التالي يقوم على الإرشاد إلى كيفية تحقيق هذين الهدفين. سنقدم المعلومات لقرائنا، ولكننا سنرفض النظريات المتمحورة حول ضرورة تغيير عقل الطفل، ذكراً كان أم أنثى،

للوصول إلى النجاح الأكاديمي. نعتقد أنّه من الخاطئ الاعتماد على أمل تغيير الطريقة الفطرية التي ينمو الطفل على أساسها كاساسٍ لتعليمه. إنّ ذلك يقلّص من حريته ويؤدي إلى الضغط على الطفل، ممّا يجعله غير مهتم بالمدرسة وممّا يعني أنّه قد يغيّر طبيعته.

من المهم أن يعبّر الطفل عن نفسه وأن يتعلّم كيفية التعويض عن ضعفه، ويكون بذلك يمارس إحدى وظائف الإنسان الطبيعية وهي التأقلم. يقوم الراشدون بحماية القدرة الفكرية للأولاد من خلال مساعدتهم على التأقلم وعلى استغلال طاقاتهم ومهاراتهم الفطرية تجاوباً مع حاجات المجتمع. إننا لا نحمي هذه العقول عندما نجعل الطالب يأخذ جرعات من الأدوية أو عندما نشاهده وهو يرسب دون أن نبذل جهدنا للحؤول دون ذلك.

ليس من السهل إلغاء المفهوم الخاطئ القائم على إمكانية تغيير القدرة الفكرية لكلّ جنس. كما وأنّ اتخاذ الخطوة الأولى من خلال تشكيل الفريق العائلي التربوي ليس أمراً بسيطاً. إلاّ أنّ تعديل المدارس والمنازل لتتماشى وحاجات أبنائنا وسيلةٌ تضمن مستقبلاً تربوياً عالي المستوى. ما قمنا به حتى اليوم لمساعدة الفتيات خير برهان على ذلك.

ما يشجعنا على مساعدة الفتيان هو النجاح الذي حقّقه مجتمعنا مع الفتيات، خصوصاً وأنّه توصل إلى نتائج باهرة في غضون عقودٍ قليلة. تمت في هذه السنوات مواجهة الكثير من أوجه المجتمع الذكوري والصناعي الذي يبرز فيه التمييز الجنسي، ممّا أدّى إلى تحسين وضع الفتيات والنساء. هناك الكثير من الخطوات الإضافية التي يجب اتخاذها، إلاّ أنّ ما حصل حتى اليوم تغييرٌ ملحوظ. خلال هذه العملية، لم يقم المجتمع بالضغط على الفتيات لتغيير قدراتهن الفكرية لينجحوا في النظام التربوي. لقد تعاون الجميع لتعديل النظام التعليمي ليتناسب وحاجات الفتيات.

لقد أضفنا الوظائف اللغوية في صفوف الرياضيات والعلوم، كما أننا قمنا بتدريب المدرّسين على استخدام الكتابة والمناقشات في هذه المواد. إضافةً إلى ذلك، فقد غيّرنا الأسلوب المتبع في الامتحانات ليشمل عدداً أكبر من الأسئلة التي تتطلّب إجاباتٍ طويلة. أخيراً، ابتكرنا طرقاً جديدة لتشجيع الفتيات في المنازل، خصوصاً وأنهنّ بحاجة فطرياً إلى التشجيع الشفهي.

لقد توصلنا إلى نتائج ملموسة متمثلة في عدم استمرار التباين بين الجنسين في الرياضيات والعلوم. أصبح أداء الفتيات في المستوى نفسه لأداء الفتيان، وهو أفضل في بعض الأحيان. تفوقت الإناث على الذكور في الرياضيات والعلوم في كاليفورنيا. كما وذكرنا في السابق، لم يعد أداء الفتيات سيئاً في معظم المدارس، بل أصبحن من المتفوقات. لقد تكلّلت محاولاتنا لتعديل النظام التربوي بالنجاح!

من المؤكد أنّ تغيير النظام ليتماشى وحاجات الفتيان أمرٌ أكثر صعوبة، خصوصاً وأنّ ما قمنا بتعديله من أجل الفتيات يزيد من المشكلات في تعليم الفتيان. في عملنا من أجل الإناث، لم نضطر إلى مواجهة المفهوم الخاطئ المتعلّق بإمكانية تغيير القدرة الفكرية. لم نعتبر يوماً أنّ الفتيات يعانين من خللٍ ما، بل لطالما اعترفنا بالعيب الموجود في النظام المدرسي. من الممكن تعديل هذا النظام لمساعدة الفتيان (دون إلحاق الضرر بالفتيان)، وهو أمرٌ يجب تحقيقه.

الوصول إلى تطبيق سليم للأبحاث

لم يكن باستطاعتنا تأليف هذا الفصل وهذا الكتاب في الثمانينات. كما لم يكن بوسعنا إظهار عدم توافق النظام التربوي مع قدرات الفتيان الفكرية لو لم تتم في العشرين سنة الماضية دراساتٍ ناجحة للدماغ ولو لم نلاحظ الاختلاف بين الفتيان والفتيات في تكوينهم وفي قدراتهم التعلّمية. بعد عشرين سنة من

الأبحاث المتعلّقة بالأزمة التي يواجهها فتياننا في المدارس، أصبح بإمكاننا إدراك مدى خطورة الوضع. بتنا قادرين على معرفة إيجابيات وسلبيات المسألة، ممّا جعل من الممكن الوصول إلى نظرياتٍ وبرامج تحمي الفتيان.

نأمل أن يكون هذا العقد عقد الفتى كما كان عقد التسعينات عقد الفتاة. نستطيع تحقيق ذلك دون إلحاق الأذى بالفتيات، وسنظهر لكم ذلك في الفصول المتبقية من الكتاب. يجب الاعتماد على هذه الفصول كأساسٍ لتعديل المجتمع وليتم اتباع طريقة حياتية جديدة تحمي الفتيان وتساعدهم على النمو والتعلّم بشكل كامل وسليم. سنعرض عليكم نتائج الأبحاث الحديثة المختصة بدماغ الذكور وبقدراتهم الفكرية، إذ إننا نسعى إلى إرشادكم إلى أساليب جديدة لمساعدة الفتيان على النمو الفكري وعلى التعلّم. نقدّم لكم في هذه الفصول استراتيجيات وتقنيات يجب الاعتماد عليها في المنازل والمدارس لتكون البيئة فيها متوافقةً وطاقات الفتيان وليتم تعليم الذكور فيها بطريقة ناجحة. تناقش هذه الفصول تحدياتٍ منهجية كالقراءة والكتابة، وتعرض الواقع الذكوري الذي تختلف المهارات فيه. هناك فتيانٌ لا يحبون الرياضة وهناك آخرون متمرّسون فيها. كما أنّ هناك من يحب القراءة ومن يكرهها، ومن يجيد الرياضيات ومن لا يجيدها.

يختلف الفتيان عن الفتيات، إلاّ أنّ هناك فِرَقاً بين الذكور أنفسهم. آمل وكاثي أن تجدوا الحلول المناسبة لجميع الفتيان ولمختلف حالاتهم. نأمل أن تُشاركونا العمل للوصول إلى نتائج أفضل من خلال القيام بأدواركم في المنازل بشكل كامل، خصوصاً وأنّها المكان الذي تبدأ فيه عملية تعليم الفتيان.